كتاب

الذريعة الى مكارم الشريعة

للشيخ أبى القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهانى

رحمه الله

آمين

(الطبعة الأولى)

طبع على ذمة مصطفى فهمى الكتبى وحسين افندى شرف

والشيخ سيد موسى شريف

بالمطبعة الشرقية التى مركزها بشارع

الخرنفش من مصر المحميه

سنة ١٣٢٤ هجريه



نسأل الله تعالى أن يجعل لنا بجوده الذي هو سبب الوجود نورا يهدينا الى الاقبال عليه ويميل بنا الى الاصغاء اليه ويدلنا على حسن معاملته والقوة على النفاذ في طاعته وأن يجعلنا من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين حيث قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين (قال الشيخ) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رحمه الله كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها وان المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف الباري جل ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعلم والعفو وان كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر وان الاحكام تتناول ذلك في العبادات وانه باكتساب المكرمة يستحق الانسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله عز وجل اني جاعل في الارض خليفة وبقوله تعالى ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون وبقوله تعالي وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم وأشرت أن خلافة الله عز وجل لا تصح الا بطهارة النفس كما ان أشرف العبادات لا تصح الا بطهارة الجسم *وقد استخرت الله تعالي الآن وعملت في ذلك كتابا يكون ذريعة الي مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الانسان الى منزلة العبودية التي جعلها الله تعالى شرفا للاتقياء وكيف يترقى عنها اذا وصلها الى منزلة الخلافة التي جعلها الله تعالى شرفا للصديقين والشهداء فبالجمع بين أحكام الشريعة

ومكارمه علما وابرازها عملا يكتسب العلى ويتم التقى وتبلغ الى جنة المأوى ورغبتى أيها الاخ الفاضل وفقك الله وأرشدك وأعاذك من شر نفسك فى تصنيفه ماراً يت من تشوقك بأن تزين ماولاه الله تعالى من حسن خلقك وخلقك بما يتولاه ن تحسين أدبك واكمال مروءتك فما أجدر محياك الصبيح أن يحصل وراء رأى الصحيح شعر

حتي تصادف أترجا يطيب معا * حملا ونورا فطاب العود والورق

ما أقبح المرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنة يعمرها يوم سرمة يحرسها ذئب كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه أما البيت فحسن وأما ساكنه فردىء وأن يكون باعتبار كثرة ماله وحسن أثاثه نورا عليه حتى فقد سمى بعض الحكماء الاغنياء الاغبياء تيوسا صوفها درر وحمرا اجلالها حبر * ودخل حكيم على رجل فرأى دارا منجدة وفرشا مبسوطة ورأى صاحبها خلوا من الفضيلة فبزق فى وجهه فقال له ماهذا السفه أيها الحكيم قال بل هذه حكمه أن البصاق ليرمى في أخس مكان فى الدار ولم أر فى دارك أخس منك فنبه بذلك على دناءة الجهل وأن قبحه لايزول بادخار القنيات وكن أيها الاخ عالما وبعلمك عاملا تكن من أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون واحذر الشيطان أن يسبيك ويغويك بأعراض الدنيا وزخارفها فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه كما قال عز من قائل انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه * واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون انسانا أو انسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا وأن يرضى بقنية مستعارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة كما قيل

فلم ير في عيوب الناس شئ * كنقص القادرين على التمام

وان أردت أن تعرف بقاء العلماء الاتقياء فاعتبر ماقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر وأعيانهم مفقوده وآثارهم فى القلوب موجوده وان أردت أن تشاهدهم فى

الجنة يتنعمون فاستمد حال حارثة حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم اصبحت مؤمنا حقا فقال عليه الصلاة والسلام لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك فقال في جملة جوابه وكانى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فصدقه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له عرفت فالزم ولا يخدعنك عن طلب ذلك وادراكه الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون فقد وصفهم الله بالصمم والعمى اذ قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ثم ذمهم الله بقوله أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * ثم فرق بينهم وبين من ضادهم فقال مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون فاخبر تعالى انهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصره اللذين بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات وهذا الكتاب يشتمل على سبعة فصول وأبواب

﴿ الفصل الاول في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب ﴾

(الباب الاول) مثل أهل الدنيا وما رشحوا له (الباب الثانى) في ماهية الانسان وكيفية تركيبه (الباب الثالث) في قوى الانسان (الباب الرابع) في تعاون القوى الروحانية وكيفية ادراكها (الباب الخامس) في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان (الباب السادس) في بيان مابه يفضل الانسان (الباب السابع) في كون منزلة الانسان بين البهيمة والملك (الباب الثامن) فيما لاجله أوجد الانسان (الباب التاسع) في السياسة التى يستحق بها خلافة الله عز وجل (الباب العاشر) في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض (الباب الحادى عشر) في كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته (الباب الثانى عشر) فيما يفزع اليه في طهارة القلب والنفس (الباب الثالث عشر) في بيان منازعة الهوى للعقل (الباب الرابع عشر) في الفرق بين مايسومه الهوى ويسومه العقل (الباب الخامس عشر) في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة النفس والهوى (الباب السادس عشر) في حصول الخلق المحمود بطهارة النفس

(الباب السابع عشر) في الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة والهوى (الباب الثامن عشر) في امكان تغيير الخلق (الباب التاسع عشر) في صعوبة اصلاح القوى الشهوية وما في هذه القوى من المنفعة والمضرة (الباب العشرون) في ازدياد الانسان من الفضائل والرذائل بتعاطيهما (الباب الحادي والعشرون) فيما يحمد ويذم من التخلق (الباب الثاني والعشرون) في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم (الباب الثالث والعشرون) في وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة (الباب الرابع والعشرون) في أنواع نعم الله الموهوبة والمكسوبة (الباب الخامس والعشرون) في حاجة بعض هذه الفضائل الي بعض (الباب السادس والعشرون) في الفضائل المطيفة بالانسان (الباب السابع والعشرون) في الفضائل الجسمانية (الباب الثامن والعشرون) فيما يتولد من الفضائل (الباب التاسع والعشرون) في الفضائل التوفيقية (الباب الثلاثون) فيما يتولد من الفضائل النفيسة بعضها ببعض (الباب الحادي والثلاثون) في الباعث على فعل الخير وتحري الفضائل (الباب الثاني والثلاثون) في الموانع من تحري الفضائل (الباب الثالث والثلاثون) في الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى أقصى الرذائل (الباب الرابع والثلاثون) في بيان عبادة الله في تهذيب الذين ترقوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم

﴿ الفصل الثاني في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها وفيه أبواب ﴾

(الباب الاول) في فضيلة العقل (الباب الثاني) في أنواع العقل (الباب الثالث) في المكتسب من العقل الدنيوي والاخروي (الباب الرابع) في منازل العقل واختلاف أسامها بحسبها (الباب الخامس) في جلالة العقل وشرف العلم (الباب السادس) في الفرق بين العقل والعلم والمعرفة والدراية والحكمة (الباب السابع) في توابع العقل (الباب الثامن) في ثمرة العقل من معرفة الله تعالى الضرورية والكسبية وغاية ما يبلغه الانسان (الباب التاسع) في وجوب بعثة الانبياء عليهم السلام وقلة الاستغناء عنهم (الباب العاشر) فيما نعرف به صحة النبوة (الباب

الحادى عشر) فى كون العقل والرسل هاديين للخلق الي الحق (الباب الثاني عشر)فى تعذر ادراك العلوم النبوية على من لم يتدرب فى العلوم العقلية (الباب الثالث عشر)في الايمان والاسلام والتقوي والبر (الباب الرابع عشر) في الايمان (الباب الخامس عشر) في أنواع الجهل (الباب السادس عشر) في قول النبي صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون بابا (الباب السابع عشر) فى كون العلم مركوزا في نفوس الناس (الباب الثامن عشر) في حصر أنواع المعلومات (الباب التاسع عشر) فيما تعرف به فضيلة العلم (الباب العشرون) في استحسان معرفة أنواع العلوم (الباب الحادى والعشرون)في معاداة بعض الناس لبعض العلوم (الباب الثانى والعشرون) في الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه (الباب الثالث والعشرون)في أحوال الناس فى استفادة العلم وافادته (الباب الرابع والعشرون) فيما يجب على المتعلم أن يتحراه (الباب الخامس والعشرون)فيما يجب على المعلم أن يتحراه مع المتعلمين منه (الباب السادس والعشرون)في وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم (الباب السابع والعشرون)فى وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة أهمال ذلك (الباب الثامن والعشرون) في ذكر من يصلح لوعظ العامة (الباب التاسع والعشرون)في الحالة التي يجب أن يكون عليها الواعظ (الباب الثلاثون) في صعوبة المعيار التي تعرف به حقائق العلوم (الباب الحادى والثلاثون)في ذكر كراهية الجدال للعوام وذمه على كل حال (الباب الثانى والثلاثون) فيما يجب أن يعامل به ذو الجدال المماحك (الباب الثالث والثلاثون) في الوجوه التى يقع من أجلها الشبه والاختلاف (الباب الرابع والثلاثون)فى بيان اختلاف الناس فى الاديان والمذاهب (الباب الخامس والثلاثون)في النطق والصمت (الباب السادس والثلاثون) فى مدح الصدق وذم الكذب (الباب السابع والثلاثون) فيما يحسن ويقبح من الصدق والكذب (الباب الثامن والثلاثون) في أنواع الكذب والداعى اليه (الباب التاسع والثلاثون) فى الذكر الحسن من المدح

والثناء (الباب الاربعون) في الشكر (الباب الحادى والاربعون) في الغيبة والنميمة(الباب الثانى والاربعون)في الكلام المستقبح (الباب الثالث والاربعون) فى المزاح والضحك (الباب الرابع والاربعون) في الحلف

﴿ الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوي الشهوية وفيه أبواب ﴾

(الباب الاول) في الحياء (الباب الثانى) فى كبر الهمة (الباب الثالث) في الوفاء والغدر (الباب الرابع) في المشاورة (الباب الخامس) في النصح (الباب السادس) في كتمان السر (الباب السابع) في التواضع والكبر (الباب الثامن) فى الفخر (الباب التاسع) فى العجب (الباب العاشر) في أنواع اللذات وتفاصيلها (لباب الحادى عشر) فيما يحسن تناوله من المطعم وما يقبح (الباب الثانى عشر) فيما يحسن تعاطيه من المنكح وما يقبح(الباب الثالث عشر) في ذكر العفة (الباب الرابع عشر) فى القناعة والزهد (الباب الخامس عشر) فى الورع

﴿ الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية وفيه أبواب ﴾

(الباب الاول) فيما ينبع من القوى الغضبية (الباب لثاني) فى أنواع الصبر ومدحه (الباب الثالث) في الشجاعة (الباب الرابع) فى أسماء أنواع الفزع والفرق بين مايحمد ويذم منها (الباب الخامس) فى مداواة الغم وازالة الخوف (الباب السادس) فى أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به (الباب السابع) فى السرور والتوبة (الباب الثامن) في العذر والتوبة (الباب التاسع) في الحلم والعفو (الباب العاشر) فى ثوران الغضب وفضل كظمه (الباب الحادى عشر) في الغيرة والجور (الباب الثانى عشر) فى الغبطة والمنافسة والحسد

﴿ الفصل الخامس فى العدالة والظلم والمحبة والبغض وفيه أبواب ﴾

(الباب الاول) في ذكر العدالة وفضيلتها (الباب الثاني) فى أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه (الباب الثالث) فيما يحسن ترك العدالة فيه (الباب

الرابع) في ذكر الظلم (الباب الخامس) في الاسباب التي يحصل منها الاضرار (الباب السادس) في ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة (الباب السابع في ماهية المحبة وأنواعها (الباب الثامن) في فضيلة المحبة (الباب التاسع) في فضيلة الصداقة (الباب العاشر) في ذكر المحبة في الناس (الباب الحادي عشر) في الحث على مصاحبة الاخيار ومجانبة الاشرار (الباب الثاني عشر) في فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته (الباب الثالث عشر) في العداوة

﴿الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل﴾

(الباب الاول) في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر (الباب الثاني) في تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل أحد بما يتحراه (الباب الثالث) في كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس (الباب الرابع) في مناسبة الابدان للصناعات ووجوب التكسب (الباب الخامس) في مدح السعي وذم الكسل (الباب السادس) في تقاسيم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض (الباب السابع) في أن أصول الصناعات مأخوذة عن وحي (الباب الثامن) في شأن الناض المتعامل به وبيان حكمة الله تعالي (الباب التاسع) في مدح المال وذمه (الباب العاشر) في ذكر المال والادب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل (الباب الحادي عشر) في سبب اخفاق العاقل وانجاح الجاهل (الباب الثاني عشر) في تحقيق كون المال في أيدي الناس (الباب الثالث عشر) في تفاوت أحوال المتناولين للاعراض الدنيوية (الباب الرابع عشر) في بيان ماورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا (الباب الخامس عشر) في مراعاة أمور الدنيا والآخرة (الباب السادس عشر) في بيان حال من يجوز له الاستكثار من اعراض الدنيا ومن لايجوز له ذلك (الباب السابع عشر) فيما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية (الباب الثامن عشر) في ذكر الانفاق الممدوح والانفاق المذموم ﴿الباب التاسع عشر﴾ في حقيقة السخاء والجود والشح والبخل ﴿الباب العشرون﴾ في فضيلة الجود وذم البخل ﴿الباب الحادي والعشرون﴾ في أنواع

الجود والمجود به

﴿ الفصل السابع في ذكر الافعال وفيه أبواب ﴾

﴿الباب الاول﴾ في أنواع الافعال (الباب الثانى) في الفرق بين الفعل والعمل والصنع (الباب الثالث) في أنواع الصناعات (الباب الرابع) فى الافعال الارادية وغير الارادية (الباب الخامس) فيما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق به ذلك (الباب السادس) في الاسباب التى يمكن نسبة الفعل اليها

﴿ الفصل الاول في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب ﴾

﴿ الباب الاول مثل أهل الدنيا وما رشحوا له ﴾

الانسان فى هذه الدار كما قال علىّ رضى الله عنه الناس سفر والدنيا دار ممر لادار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قيل

رأيت أخا الدنيا وان كان خافضا * أخا سفر يسرى به وهو لايدرى

وقد دعي الى دار السلام كما قال الله تعالى لهم دار السلام عند ربهم وقال تعالى والله يدعو الى دار السلام وتوجه به اليها نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات جنات تجرى من تحتها الانهار بل الى جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين لكن لما كان الطريق اليها مضلة مظلمة قد استولى عليها اشرار ظلمة جعل الله عز وجل لنا من العقل الذى ركبه فينا وكتابه الذى أنزله علينا نورا هاديا ومن عبادته التى أمرنا بها حصنا وافيا فقال في وصف نوره الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّىّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار نورعلى نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس فجعل المصباح مثلا للعقل والمشكاة مثلا لصدر المؤمن والزجاجة

قلبه والشجرة المباركة وهى الزيتونة للدين وجعلها لاشرقية ولا غربية تنبيها على انها مصونة عن التفريط والافراط كما قال ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والزيت للقرآن وبين ان القرآن يمد العقل مد الزيت للمصباح وانه يكاد يكفى لوضوحه وان لم يعضده العقل ثم قال نور على نور أى نور القرآن ونور العقل وبين انه يخص بذلك من يشاء *وقال فى وصف ماجعله الله تعالى لنا من الحصن ان عبادى ليس لك عليهم سلطان أى المتخصصين بمبادئى فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه فى دجاه وتمكنت من استغوائه عداه كما قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون فلم يتزود من دنياه زاده كما امره بقوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى وحانت رحلته فيسترجع منه ماأعير من جده وذات يده فيتحسر حين لا يغنيه تحسره ويقول ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ويقول هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أونرد فنعمل غير الذى كنا نعمل فحينئذ لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وأيضا فان الانسان من وجه في دنياه حارث وعمله حرثه ودنياه محرثته ووقت الموت وقت حصاده والآخرة بيدره ولا يحصد الا مازرعه ولا يكيل الا ماحصده *ولهذا قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وكما أن فى البيدر مكاييل وموازين وأمناء وحفاظا ومشاهدين وكتابا كذلك في الآخرة مثل ذلك كما قال تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون وقال وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وكما ان فى البيدر تذرية وتمييزا بين النقاوة والحطام فكذلك في الآخرة تمييز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون

وقال فى أعمال الكفار مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شئ وقال وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا فمن عمل الاآخرة بورك له فى كيله ووزنه وجعل له زادالآخرة كما قال تعالي ومن أراد الاآخرة وسعي لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله كما قال تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلى والحنظل فى الربيع ترى خض الاوراق حتى اذا حان حين الحصاد لم ينل طائلا واذا حضر مجتناه البيدر لم يفد نائلا ومثل أعمال الاآخرة كشجرة الكرم والنخل والمستقبح المنظر في الشتا. فاذا حان وقت القطاف والاجتناء افادتك زاد او ادخرت منه عدة وعتادا والى نحوهما أشار الله تعالى بقوله ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار* ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى والله تعالى يؤيد بفضله من يشاء وهو البارى

﴿ الباب الثانى في ماهية الانسان وكيفية تركيبه ﴾

الانسان مركب من جسم مدركه البصر ونفس مدركها البصيرة واليهما أشار بقوله تعالى اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فالاشارة بالروح الى النفس واضافته تعالى الروح اليه تشريفا لها وعنى به النفس المذكور في قوله تعالى أخرجوا أنفسكم ووجود النفس في الانسان لايحتاج أن يدل عليه لوضوح أمره بل ينبه الجاحد لها والغافل عنها بأنها هى التى بحصولها فى الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأى

والتمييز ويكون الجسم متصرفا بها وحاملا ومستحسنا ومستطابا محبا وبفقدها عدم هذه الاشياء فيصير جيفة محتاجا الى عدة تحمله وهي محل الاعراض والروحانية كالجسم في كونه محلا للاعراض الجسمانية وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى في قوله وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون وقال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق وكان يقال في لامم السالفة من أنكر الباري رجم لكونه جاحدا ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلا وقيل كان في كتب الله تعالى المنزلة اعرف نفسك ياانسان تعرف ربك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه بل قال الله تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم تنبيها انهم لما نسوه تعالى دل نسيانهم اياه علي نسيانهم لها وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الانسان تركيبا محسوسا معقولا علي هيئة العالم وأوجد فيه شبه كل ماهو موجود في العالم حتى قيل الانسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير وذلك ليدل به على معرفة العالم فيتوصل بهما الى معرفة صانعهما فغاية معرفة الانسان لبارئه تعالي أن يعرف العالم فيعلم انه موجود وان له موجدا ليس مثله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

﴿ الباب الثالث في تعديد قوى الانسان وصفاته ﴾

قد جعل الله تعالي الانسان خمس قوى يدل على وجودها فيه مايظهر من تأثيراتها (قوة الغذاء) وبها النشور والتربية والولادة (وقوة الحس) وبها الاحساس واللذة والالم (وقوة التخيل) وبها تصور أعيان الاشياء بعد غيبوبتها عن الحس (وقوة النزوع) وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف والرضا والغضب والايثار والكراهة (وقوة التفكر) وبها يكون النطق والعقل والحكمة والرؤية والتدبير والمهنة والرأى والمشورة فأما القوى المدركة منها فخمس الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل والحفظ فأما الحواس فلكل واحد منها ادراك مخصوص فللمس عشرة

ادراكات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة* وللذوق سبع الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة والحرافة والعفوصة واللثغة وللشم اثنان الطيب والنتن وللسمع اثنان الصوت الخفيف والصوت الثقيل *وللبصر أحد عشر ادراكا النور والظلمة واللون والجسم وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده فادون هذه الادراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم فالنفس لاتكاد تستعين بها الا فيما يعود نفعها الى صلاح الجسم وأرفع الادراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس الا أن العقل والفكر يدركان الاشياء الروحانية فأما السمع والبصر فتوسطان لانهما يخدمان النفس والجسم وخدمتهما للنفس أكثر ويدركان الاشياء الجسمانية والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع والبصر فيأخذ تارة من السمع والبصر ويسلمها الى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة ويأخذ تارة من العقل والفكر ويسلمه الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ومسكن الخيال مقدمه ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذى منه منشأ الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال لفلان دماغ اذا قويت منه هذه القوى المدركة وفلان خالى الدماغ اذا ضعفت فيه هذه القوى ويعبر عنها تارة بالقلب والثاني أكثر* وعلى ذلك قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب*ولما كان ادراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادما للعقل والفكر تارة وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ولذلك عظم الله تعالى المنة على الانسان باعطائه اياه هذه الثلاث وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل وجعل لكم السمع والابصار والافئدة وقال في ذم من لاينتفع بها لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون

بها ولهم آذان لا يسمعون بها وقال صم بكم عمى فهم لا يعقلون أى لا يفهمون المعنى لأنهم لا يسمعون الاصوات ولا يبصرون الذوات وجعلهم بكما من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطا بالفكر ومدركا بالعقل * واعلم أن السمع والبصر كالاخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه فى ادراكه فقد ينوب السمع عن البصر فى ابلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك في ساعة مالا يدركه البصر في برهة وينوب البصر عن السمع في ابلاغ القلب بمطالعة الكتب مالا يدركه السمع في مدة سيما اذا كان المخاطب ناقص العبارة أو غير متثبت في الكلام أودق المعنى وغمض

(الباب الرابع في تعاون القوى الروحانية وكيفيات ادراكها)

القوي الروحانية متعاونات فى ادراكهن رسوم المعلومات فان الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى صورته الروحانية فيه فينتقش بها نقش الشمع بصورة الختم ثم يأخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم يؤديه الى القوة الحافظة فان أراد ابرازه قولا سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان وان أراد ابرازه فعلا سلط عليه القوة الباطشة فيوجده بالجوارح * وقد ضرب بعض الحكماء مثلا لهذه القوى يقرب منه تصور تأثيراتها فقال ان القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك تسكن وسط المملكة والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى كاتبه والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الاخبار الصادقى اللهجات فيما يرفعونه من الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذى وكل به فيرفعه الى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط مايراه حشوا ويرفع الباقى صافيا الى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه الى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم باخراجه قالوا وكما أن للملك أفعالا يستعين فيها بغيره وأفعالا ينفرد فيها هو بنفسه والافعال التى يتولاها بنفسه

أشرف من التي يفوضها الى غيره كذلك للقوة المفكرة أفعال تفوضها الى غيرها وأفعال تختص هي بها وهي الروية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة فبهذه الاشياء تدبير الامور فبالفكر استخراج الغوامض وبالاعتبار يحصل التجربة وبالقياس استنباط المجهول بتوسط المعلوم والفراسة الاطلاع على الاسرار ونحو هذا المثل ماروى أن كعب الاحبار قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت الانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك طاب جنوده فقال هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ الباب الخامس في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان ﴾

للانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي فان البهائم وان كانت كلها تحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الاشياء ولا أسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية وانما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها في ذلك الفيل والقرد وأما فضله في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ماأوجد في هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وقوله وصوركم فأحسن صوركم ولم يعن الصورة التخطيطية فقط بل عناها والصورة المعقولة ولتشريفه تعالى اياه بذلك قال ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ومن زعم أن الانسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث انه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحا في ذاته كما أعطي كثير منها فنظره ناقص اذ قد أعطى الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب مايريده فيتناوله متى أراد ويضعه متى أحب ثم لو أعطى الانسان بعض الاسلحة التي اعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضا

فلو أعطي ذلك لكان من الحق أن لا يعطي التمييز لانه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك * ان قيل كيف قال تعالى خلق الانسان ضعيفا فاستضعفه * قيل ضعفه بالاضافة الى الملأ الاعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كنفها * واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فاعا أوجد لاجل الانسان اما الانتفاعه به في الحمل والركوب كالخيل والبغال والحمير أو الاغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار وأما الانتفاع ما ينتفع به الانسان كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان نفسه فليس يخرج من كونه نافعا وقد بين الحكماء نفع جلها وما لا سبيل لبعضنا أولكلنا لي معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله تعالى جده في ايجاده ورب شئ جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات كالشجر الذى فيه العسل بالقوة وما سخر لمعرفته واستخراجه الا النحل وما أليق من أنكر حكمته تعالى بجهله بأن ينشد

على نحت القوافى من مقاطعها * وما على بأن لا يفهم البقر

والله أعلم

(الباب السادس في بيان ما يفضل به الانسان)

الانسان وان كان هو بكونه انسانا أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار انسانا وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ولهذا قيل الناس أبناء ما يحسنون أى ما يعرفون ويعملون من العلوم والاعمال الحسنة يقال أحسن فلان اذا علم واذا عمل حسنا فأما الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار وأما فضيلته فبالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان الابهيمة مهملة أوصورة ممثلة فالانسان يضارع الملك بقوة النطق والعلم والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق بأن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته كلها الى تربية

القوة الشهوية باتباع اللذات البدنيـة يأ كل كما تأ كل الانعام تخليق بأن يلحق بأفق البهـائم فيصـيرا ماغمرا كثور واما شرها كخنزير واما ضرعا ككلب أو حقودا كجمل أو متكبرا كنمر أوذاروغان كثعلب أو جماع كديك أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وعلى ذلك قوله تعالى وجعل منهـم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ولكون كثير ممن صورته صورة الانسان وليس هو في الحقيقة الا كبعض الحيوان قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله عز وجـل ان هم الا كالانعام بل هم أضـل وقال ان شر الدواب عنـد الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون فبين أن الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التى جعلها الله تعالى لهم هم شر الدواب وقال مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء أي مثل واعظ الكافرين كناعق الاغنام تنبيها انهم فيها كالبهائم ولهذا النظر عبر الشاعر عن بعض من ذمه فقال

اللؤم أكرم من وبر ووالده * واللؤم أكرم من وبر وماولدا

ولم يقل ومن ولدا تنبيها انه لا يستحق أن يقال له من لكونه بهيمة وعلى هذا قال المتنبي

حولي بكل مكان منهم خلق * تخطى اذاجئت فى استفهامه بمن

ولمـا ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الانواع وبعضها من التفاوت مابين انسان وانسان فانك قد ترى واحدا كعشرة وعشرة كمائة بل واحـدا كمائة وعشرة أخرى هدره دون واحد كما قيـل لامرأة فى منامها أعشرة هدره أحب اليك أم واحد كعشرة فقالت بل واحد كعشرة قال الشاعر

ولم أر أمثـال الرجال تفاوتا * لدى المجد حتى عد ألف بواحد

بل نرى واحـدا كعشرة آلاف ونري عشرة آلاف دون واحد كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصـدق قيلا الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة والابل في تعارفهم اسم لمـائة بعير فمائة ابل هى عشرة آلاف بعير بل لو قيـل قد نرى واحـدا كعالم وعالمـا كواحد لجاز كما قال عليه الصلاة والسلام وزنت

باقي فرجحتهم وعلى هذا قال أبو نواس

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

﴿الباب السابع فى كون الانسان بين البهيمة والملك﴾

الانسان لما ركب تركيبا بين بهيمة وملك فشبهه للبهائم بما فيه من الشهوات البدنية من المأكل والمشرب والمنكح وشبهه للملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود صار واسطة بين جوهرين رفيع ووضيع ولهذا قال تعالى وهديناه النجدين فالنجدان من وجه العقل والهوى ومن وجه الآخرة والدنيا ومن وجه الايمان والكفر ومن وجه الهدى والضلالة ومن وجه موالاة الله عز وجل وموالاة الشيطان المذكورتان فى قول الله عز وجل الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ومن وجه النور والظلمة المذكورتان في هذه الآية أى الفضيلة والنقيصة ومن وجه الحياة والموت المذكوران فى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه فمن وفقه الله تعالى عز وجل للهدى وأعطاه قوة ليبلغ المدى فراعى نفسه وزكاها فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فاهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال الله سبحانه وتعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها

﴿الباب الثامن فيما لاجله أوجد الانسان﴾

الانسان من حيث هو انسان كل واحد كالآخر كما قيل

* فالأرض من تربة والناس من رجل * وانما تشرف بان يوجد كاملا في المعنى الذي وجد لاجله * وبيان ذلك ان كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم أو هدى بعض الخلق الى ايجاده وصنعه فانه موجد لفعل يختص به كالبعير انما خص به ليلاما وأثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس والفرس ليكون لنا جناحا نطير به والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما والباب نحرز به البيت فالفعل المختص بالانسان ثلاثة عمارة الارض المذكورة فى قوله

تعالى واستعمركم فيها وذلك تحصيل ... تزجية المعاش لنفسه وغيره وعبادته
المذكورة في قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وذلك هو الامتثال
للباري تعالى في عبادته في أوامره ... وخلافته المذكورة في قوله تعالى
ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون وغيرها من الآيات وذلك هو
الاقتداء بالباري سبحانه على قدر ... البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة
ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم والاحسان
والفضل والقصد منها أن يبلغ بها ... جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك
وتعالى وكل ما أوجد لفعل ما فمتى ... ما وجود ذلك المعنى منه ودناءته لفقدان
ذلك منه كالفرس للعدو والسيف ... لخص به في القتال ومتى لم يوجد فيه
المعنى الذي لاجله أوجد كان ناقصا ... أن يطرح طرحا أو يرد الى منزلة النوع
الذي هو دونه كالفرس اذا لم يصلح ... للعدو اتخذ حمولة أو أعدا كولة والسيف
اذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارا فالانسان ... اذا لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا
لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه ... قال الله تعالى في ذم الذين تركوا هذه
الفضيلة ان هم الا كالانعام بل هم أضل

﴿ الباب التاسع في السياسة ... التي يستحق بها خلافة الله تعالى ﴾

قد تقدم ان الخلافة تستحق ... بالسياسة وذلك بتحري مكارم الشريعة والسياسة
ضربان أحدهما سياسة الانسان نفسه ... وبدنه وما يختص به والثاني سياسة غيره من
دونه وأهل بلده ولا يصلح لسياسة ... غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ولهذا ذم الله تعالى
من ترشح لسياسة غيره ومن يأمر بالمعروف ... وينهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه
فقال أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون
ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وقال يا أيها الذين آمنوا
عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم أي هذبوها قبل الترشح لتهذيب
غيركم وبهذا النظر قيل تفقهوا ... قبل أن تسودوا وتنبيها انكم لا تصلحون
السيادة قبل معرفة الفقه والسياسة ... ولان السائس يجري من المسوس مجرى

ذي الظل من الظل ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله ولاستحالة أن يهتدى المسوس والسائس ضال قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر فحكم انه محال أن يكون مع اتباعه الشيطان يأمر الا بالفحشاء.

(الباب العاشر فى الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض)

أما مكارم الشريعة فمبدؤها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والاحسان فبالتعلم يتوصل الي الحكمة وباستعمال العفة يتوصل الى الجود وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم وباستعمال العدالة يصحح الافعال ومن حصل لهذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وصلح لخلافة الله تعالي عز وجل وصار من الربانيين والشهداء والصديقين واعلم أن العبادة اعم من المكرمة فان كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة والفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة وحدودا مرسومة وتاركها يصير ظالما متعديا والمكارم بخلافها وأن يستكمل الانسان مكارم الشريعة مالم يقم بوظائف العبادات فتحرى العبادات من باب العدالة وتحري المكارم من باب الافضال والنفل ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ولا يفضل من ترك العدل بل لا يصح تقاضى الفضل الا بعد العدل فان العدل فعل مايجب والتفضل الزيادة على مايجب وكيف يصح تصور الزيادة على شئ هو غير حاصل في ذاته ولهذا قيل لايستطيع الوصول من ضيع الاصول فمن شغله الفرض عن النفل فمعذور ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور وقد أشار تعالى بالعدل الى الاحكام وبالاحسان الى المكارم بقوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ففعل الخير هو الزيادة على العبادة وأما عمارة الارض والقيام بما فيه تزجية حيوة الناس وصلاح معاشهم فالانسان الواحد من حيث لم يكف أمر معاشه بانفراده من مأكله وملبسه

ومسكنه وليس له سبيل الى ثباته فى الدنيا الا بما يسد جوعته ويستر عورته ويقيه من الحر والبرد لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ولذلك قال الله تعالى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى ومتى كان سعي العبد فى ذلك على الوجه الذى يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهادا في سبيل الله تعالى كما قال عليه الصلاة والسلام من طلب الرزق على مايسن فهو فى جهاد ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباء منثورا كما قال تعالى هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وكان فيما يتولاه خادما للناس مسخرا بلا ارادة منه لخدمتهم حتى كأنه من جملة البهائم التي سخرها الله تعالى لعباده فامتن عليهم بها في قوله والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة

(الباب الحادى عشر في كون طهارة النفس شرط فى صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته)

لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه الا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها فللنفس نجاسة كما ان للبدن نجاسة لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لاتدرك الا بالبصيرة واياها قصد تعالى بقوله تعالى انما المشركون نجس وبقوله تعالى والرجز فاهجر وبقوله كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يعقلون وانما لم يصلح لخلافة الله الا من كان طاهر النفس لان الخلافة هى الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحرى الافعال الالهية ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل فكل اناء بالذى فيه يرشح وان يخلو مسلك سوء عن عرف سوء ولهذا قيل من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن أطيب من عمله والكافر أخبث من عمله بل قد أشار تعالى الى ذلك بقوله الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وقوله والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج الا نكدا ولاجل انه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال بعضهم في قوله

عليه الصلاة والسلام لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب انه أشار بالبيت الى القلب وأشار بالكلب الى الحرص والحسد ونحوهما ونبه أن نور الله تعالى لايدخله اذا كان فيه ذلك واستدل على صحته بأن الحرص يقال له الكلب وانه يقال فلان أحرص من كلب ويقوى ذلك ماروى أن التقوى لاتسكن الا قلبا نظيفا والى الطهارتين أشار بقوله تعالى وثيابك فطهر والرجز فاهجر وكنى بالثياب عن البدن كقول الشاعر

ثياب بنى عوف طهارى نقية * وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد قال بعض الحكماء العلماء انما سميت الحواريون بذلك لانهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم من قولهم حورته أى بيضته وماروى انهم كانوا قصارين فاشارة الى هذا المعنى وان كان من لم يتخصص لمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين العامة

﴿ الباب الثانى عشر فيما يفزع اليه من طهارة النفس ﴾

الذى به يطهر النفس حتى يترشح لخلافة الله تعالى ويستحق به ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التى هي سبب الحياة الاخروية كما ان الذى يطهر به البدن هو الماء الذى هو سبب الحياة الدنيوية ولذلك سماها الحياة وسمى ماأنزل الله تعالى فى كتابه الماء فقال استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فسمى العلم والعبادة حياة من حيث ان النفس متى فقدتهما دلكت هلاك الابد كما قال في وصف الماء وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون وقال أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها قال ابن عباس رضى الله عنهما عنى بالماء القرآن اذ كان به طهارة النفس قال وبالاودية القلوب احتملته بحسب ماوسعته قال بعض العلماء في قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء وقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا انه عنى به القرآن وكقوله وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة

للمؤمنين وأحذر بصحة قوله تعالى فان الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء أعنى كلام رب العزة فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده فى الطهارة لان الذي ينبع من الارض يعمل عمله والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث قوة الفكر بتهذيبها حتي تحصل الحكمة والعلم وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفة والجود وقوة الحمية باستيلائها حتى ينقاد للعقل فيحصل الشجاعة والحلم فيتولد من اجتماع ذلك العدل لجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث أما من فساد الفكرة فيتولد الجربزة والبله وأما فساد الشهوة فيتولد الشره أو خمود الشهوة وأما من فساد الحمية فيتولد التهور أو الجبن ومن حصول هذه الاشياء أو حصول بعضها يحصل ما الظلم واما الانظلام لجميع رؤس الفضائل الخلقية أربعة وجميع رؤس الرذائل الخلقية ثمانية

﴿ الباب الثالث عشر في بيان ملازمة الهوى للعقل ﴾

اعلم أن مثل الانسان في بدنه كمثل وال فى بلده وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للوالى بصورة الناصح وفى نصحه ذنب العقرب ويعارض الوزير في تدبيره ولا يفتر ساعة عن منازعته ومعارضته وكما ان الوالى في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وأدب صاحب شرطته وجعله مؤتمرا لوزيره وسلطه على هذا العبد وأتباعه حتى يكون هذا العبد مسوسا لا سائسا ومدبرا لا مدبرا استقام أمر بلده فكذا أيضا النفس متى استعانت بالعقل في التدبير وأدبت الحمية وسلطته على الشهوة وقواها استتبت أمرها والا فسدت ولهذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقال تعالى في ذم من اتبعه أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وقال

تعالى ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال تعالى في مدح من عصاه وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى وقال عليه الصلاة والسلام أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك اشارة الى الهوى فالعقل وان كان أشرف القوى، وبه صار الانسان خليفة الله عز وجل في العالم فليس دأبه الا الاشارة الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما يرى فيه يرأه فان قبل منه المريض والا سكت عنه ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة والممانعة ولهذا لايتبين فضيلة العدل لمن لا حمية له ولهذا النظر قيل المهين من لاسفيه له وقال

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقي مربض المستأسد الحامي

وأيضا مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر يراعي أحواله وعقله خليفة مولاه ضم اليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه بما يفعله اذا عاد الى حضرة مولاه وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليركبه وشهوته سائس خبيث ضم اليه ليتعهد فرسه ولا قدرة لهذا السايس عند المولى والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج اليه عاجلا وآجلا كما وصفه الله تعالى بقوله وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وقوله مافرطنا في الكتاب من شيء والنبي عليه الصلاة والسلام بمنزلة رسول أتاه اليه بالكتاب ليبين له مايشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب وقبيح أن ينسى هذا الوالي مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ويصرف همه كله الى تفقد فرسه وسائسه ويقيم سائس فرسه مقام خليفة ربه ومن وجه آخر الانسان من حيث ماجعله الله تعالى عالما صغيرا وجعل بدنه كمدينة والعقل كملك مدبر فيها وقواه من الفكر والخيال والحواس كجنده وأعوانه والاعضاء كرعيته والشهوة كعدو ينازعه في مملكته وسعى في اهلاك رعيته صار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد أعداءه فهزمهم اواسرهم أو قهرهم على مايحب وكما

يجب حمد أثره اذا عاد الى حضرته كما ضمنه تعالى حيث يقول فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما فدفاع الهوى أعظم جهاد كما قال عليه الصلاة والسلام وقد سئل أى الجهاد أفضل قال جهادك هواك وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره اذا عاد اليه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته وقال ان الله تعالى يقول للكافرين يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك وأيضا مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه معلما فهو قمين بادراك حاجته من الصيد ومتى كان أخرق وفرسه جموحا أو حرونا وكلبه عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل معه مطيعا فهو قمين ان يعطب فضلا عن أن يدرك ماطلب وللانسان مع هواه ثلاثة أحوال الاولى أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه والثانية أن يغالبه فيقهره مرة ويقهره مرة أخرى واياه قصده لمدح المجاهدين وعناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم والثالث أن يغلب هواه ككثير من الانبياء وبعض صفوة الاولياء وهذا المعنى قصد بقوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوي وقصد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله مامن أحد الا وله شيطان وان الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته فان الشيطان يتسلط على الانسان بحسب وجود الهوى فيه والله أعلم بالحقيقة

﴿ الباب الرابع عشر فى الفرق بين مايسومه العقل وبين مايسومه الهوى ﴾

من شأن العقل أن يرى ويختار أبدا الافضل والاصلح في العواقب وان كان على النفس في المبدا مؤنة ومشقة والهوي على الضد من ذلك فانه يؤثر مايدفع به المؤذي في الوقت وان كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي

الرمد الذي يؤثر أكل الحلاوات واللعب في الشمس على تناول(١)الاهليلج والحجامة ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وأيضا فان العقل يرى صاحبه ماله وما عليه والهوى يريه ماله دون ما عليه ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام حبك الشئ يعمي ويصم ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدا في الاشياء التي هي له لا عليه ويظن انه هوى لا عقل ويلومه وينبغي أن يستقصي النظر فيه قبل امضاء العزيمة حتى قيل اذا عرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير في الكراهة قال الله تعالى وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وقال فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وأيضا فان ما يرى العقل يتقوى اذا فزع فيه الى الله عز وجل بالاستخارة وتساعد عليه العقول الصحيحة اذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر اذا استعين فيه بالعبادة وما يراه الهوى فبالضد من ذلك وأيضا فان العقل يرى ما يرى بحجة وعذر والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق اذا سئل عن عشقه والمتناول لطعام رديء اذا سئل عن فعله قال بعض العلماء اذا مال العقل نحو مؤلم جميل والهوى نحو ملذ قبيح فيتنازعان بحسب غرضهما ويتحاكمان الى القوة المدبرة بادر نور الله عز وجل الى نصر العقل ووساوس الشيطان الى نصر الهوى كما قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان وحيه لم تر نور العقل فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل على علم ومتى كانت من حزب الله وأوليائه

---

(١) في القاموس الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيد ومنه كابلي ينفع من الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع اهـ بحروفه

اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال الله تعالى
واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ان الذين اتقوا
اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم
في الغي ثم لايقصرون ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله ولو اتبع
الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن أى لو أعطى كل انسان
مايهواه مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة وأن ينال
في الدنيا الخير الابدى بلا مزاولة ولا طلب لكان في ذلك فساد العالم وقيل
في قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت
وفرعها في السماء الآية انه ضرب الشجرة الطيبة مثلا العقل والخبيثة مثلا
للهوى ففرع الطيبة النور والاسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال * ان قيل
ماالفرق بين الشهوة والهوى * قيل الشهوة ضربان محمودة ومذمومة فالمحمودة
من فعل الله سبحانه وتعالى وهى قوة جعلت في الانسان لتنبعث بها النفس
لنيل مايظن أن فيه صلاح البدن والمذمومة من فعل البشر وهى استجابة
النفس لما فيه لذاتها البدنية والهوى هى هذه الشهوة الغالبة اذا استتبعت
الفكرة وذلك ان الفكرة بين العقل والشهوة فالعقل فوقها والشهوة تحتها
فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن واذا اتضعت
ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت مقابح والنفس قد تريد ماتريد
بمشورة العقل تارة ومشورة الهوى تارة ولهذا قد تسمى الهوى ارادة

﴿الباب الخامس عشر فى ذكر الخاطر الذى يعرض من جهة العقل والهوى﴾

أول مايعرض من ذلك السانح ثم الخاطر والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه
وسلم بقوله أن للشيطان لمة بابن آدم وان للملك لمة فاما لمة الملك فوعد بالخير
وتصديق الحق بالحق وأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ثم قرأ
الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية ثم من بعدهما الارادة ثم العزم ثم
العمل فالسانح علة الخاطر والخاطر علة الارادة والارادة وهى الهمة علة العزم

فالسانح والخاطر يعبر عنهما بالهاجس والهاجس متجاوز عنه مالم يصر ارادة وعزما فحق الانسان اذاخطر له خاطر ان يسبره عاجلا فان وجده خيرا رباه حتى يجعله فعلا وان وجده شرا بادر الى قمعه وتلافيه قبل أن يصير ارادة ويطهر منه قلبه تطهير أرضه من خبيثات النبات وهذا المعنى أراده الحسن رحمه الله بقوله رحم الله عبدا وقف عند همه فان كان لله عز وجل مضى والا كف قال بعض الحكماء ان تداركت الخطرة اضمحلت والا صارت شهوة وان تداركت الشهوة والا صارت طلبا وان تداركت الطلب والا صار عملا وقال بعض الحكماء ان ولي الله اذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ورأى ببصيرته ظلمة ووجد روعة واذا أتته لمة الرحمن انشرح صدره وأولياء الشيطان بخلافه لقوله تعالى واذا ذكر الله اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذاهم يستبشرون والله ولي الرشاد

﴿ الباب السادس عشر في حصول الخلق المحمود بطهارة النفس ﴾

قد تقدم أن طهارة النفس باصلاح القوى الثلاث فاصلاح المفكرة بالتعلم حتى تميز بين الحق والباطل في الاعتقاد وبين الصدق والكذب في المقال وبين الجميل والقبيح في الفعال واصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس بالجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة واصلاح الحمية باسلاسها حتى يحصل التحلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب وتحصل الشجاعة وهي كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين وباصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والاحسان وهذه جميع المكارم من طهارة النفس وحسن الخلق الممدوح بقوله عليه الصلاة والسلام أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا وألطفهم بأهله ويعني بالملاطفة بالاهل تهذيبهم وتأديبهم المشار اليه بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا والممدوح أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام احبكم الي أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقيل جماع المكارم في قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا

بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون وذلك انه بالايمان يحصل العلم والحكمة وذلك باصلاح الفكرة وبالمجاهدة بالاموال و لانفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لاصلاح الشهوة والشجاعة والحلم اللذان هما تابعان لاصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير ذلك هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك فالعفو عمن ظلمك نهاية الحلم والشجاعة واعطاء المال من حرمك نهاية الجود ووصل من قطعك نهاية الاحسان والله أعلم

(الباب السابع عشر في الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة)

الطبع أصله من طبع السيف وهو اتخاذ الصورة المخصوصة في الحديد وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارا بضرب الدراهم والنحيتة اعتبارا بالنحت والنجر اعتبارا بنجر الخشب والغريزة اعتبارا بما غرز عليه وكل ذلك اسم للقوة التي لاسبيل الى تغييرها والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتبارا بالشامة التي في أصل الخلقة والسجية اسم لما سجي عليه الانسان من قولهم عين ساجية أي فاترة خافقة وأكثر مايستعمل ذلك كله فيما لايمكن تغييره وأما الخلق في الاصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب والصرم والصرم لكن الخلق يقال في القوى المدركة بالبصيرة والخلق في الهيئات والاشكال والصورة المدركة بالبصر وجعل الخلق تارة اسما للقوة الغريزية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فرغ الله من الخلق والخلق والرزق والاجل وتارة يجعل اسما للحالة المكتسبة التي يصير بها الانسان خليقا أن يفعل شيئا دون شيء كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ولهذا خص كل حيوان بخلق في أصل خلقته كالشجاعة للاسد والجبن للارنب والمكر للثعلب ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملاسة فكأنه اسم لما مرن عليه الانسان من قواه بالعادة وقد روى أفضل الافعال الخلق الحسن وروى ما أعطى الله أفضل من خلق حسن فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر وجعل مرة اسما للفعل الصادر عنه

باسمه وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة فان ذلك يقال للهيئة وللفعل جميعا وربما سمى الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء والجود فان السخاء اسم للهيئة التى عليها الانسان والجود اسم للفعل الصادر عنها وان كان قد يسمى كل واحد باسم الآخر وأما العادة فاسم لتكرر الفعل أو الانفعال من عاد يعود وبها يكمل الخلق وليس للعادة فعل الا تسهيل خروج ماهو بالقوة فى الانسان الى الفعل وأما حدوث السجية الى خلاف ماخلقت له فمحال فالسجية فعل الخالق عز وجل والعادة فعل المخلوق ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق لكن ربما يقوى العادة قوة محكمة حتى تعد سجية وبهذا النظر قيل العادة طبيعة ثانية

﴿ الباب الثامن عشر امكان تغير الخلق ﴾

اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ماجبل عليه ان خيرا وان شرا كما قال

ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه * لئيم ولا يسطيعه متكرم
وما هذه الاخلاق الا غرائز * فمهن محمود ومنها مذمم

ويعلق أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام من آتاه الله وجها حسنا وخلقا حسنا فليشكر الله وماروى فرغ الله من الخلق والخلق الخبر فمحال أن يقدر المخلوق على تغييرا فعل الخالق عز وعلا فقال بعضهم يمكن تغيير ذلك واستدل بما روى حسنوا أخلاقكم فلو لم يمكن لما أمر به قال ولان الله تعالى خلق الاشياء على ضربين أحدهما بالفعل ويجعل للعبد فيه عملا كالسماء والارض والهيئة والشكل والثاني خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة ترشح الانسان لاكماله وتغيير حاله وان لم ترشحه لتغييره ذاته كالنوى الذى جعل فيه قوة النخل وجعل للانسان سبيلا الى أن يجعله بعون الله تعالى نخلا وأن يفسده افسادا قال والخلق من الانسان يجرى هذا المجرى في انه لاسبيل للانسان الى تغير القوة الى أن تصير سجية وجعل له سبيلا الى اسلاسها ولهذا قال تعالى قد أفلح من زكاها

وقد خاب من دساها ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهي ولما جوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا في الانسان ممتنعا وقد وجدنا في بعض البهائم ممكنا فالوحشي قد ينتقل بالعادة الى الناس والجامح الى السلامة لكن الناس في غرائزهم مختلفون فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول وبعضهم في اوسط وكل لا ينفك من أثر قبول وان قل فأرى أن من منع من تغيير الخلق فانه اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح فان النوى محال أن ينبت منه الانسان تفاحا ومن أجاز تغيير فانه اعتبر امكان مافي القوة الي الوجود وافسادها له نحو النوى فانه يمكن أن يتعهد فيجعل نخلا وأن يترك مهملا حتى يعفن ويفسد وهذا صحيح أيضا فاذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما

(الباب التاسع عشر في صعوبة اصلاح القوى الشهوية وما في هذه من المضرة والمنفعة)

أصعب هذه القوى الثلاث مداواة قمع الشهوة لانها أقدم القوى وجودا في الانسان وأشدها به تشبثا وأكثرها منه تمكنا فانها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنس بل في النبات الذي هو جنس جنسه ثم يوجد فيه قوة الحمية ثم آخرا توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم وشر الهوى الا بأمانة الشهوة البهيمية ولو بقهرها وقمعها ان لم يمكنه اماتته اياها فهي التي تضره وتغره وتصرفه عن طريق الآخرة ومتى قمعه أو أماته صار الانسان حرا نقيا بل يصير الهيا ربانيا فتقل حاجاته ويصير غنيا عما في يد غيره وسخيا بما في يده ومحسنا في معاملاته *فان قيل فاذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة في الاضرار فلأي حكمة اقتضت أن يبلى بها الانسان *قيل الشهوة انما تكون مذمومة اذا كانت مفرطة وأهملها صاحبها حتى ملكت القوى فأما اذا أدبت فهي المبلغة الى السعادة وجوار رب العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما أمكن الوصول الى الآخرة وذلك ان الوصول الى الآخرة بالعبادة ولا سبيل

الى العبادة الا بالحياة الدنيوية ولا سبيل الى الحياة الدنيوية الا بحفظ البدن ولا سبيل الى حفظ البدن الا باعادة مايتحلل منه ولا سبيل الى اعادة مايتحلل منه الا بتناول الاغذية ولا يمكن تناول الاغذية الا بالشهوة فاذن الشهوة محتاج اليها ومرغوب فيها، تقتضي الحكمة الالهيــة ايجادها وتزيينها كما قال تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الآيه لكن مثلها مثل عدو تخشي مضرته من وجه وترجى منفعته من وجه ومع عداوته لايستغني عن الاستعانة به فحق العاقل أن يأخذ نفسه ولا يسكن اليه ولا يعتمد عليه الا بقدر ماينتفع به وما أصدق في ذلك قول المتنبي اذا تصور في وصف الشهوة وان قصدها في أجود ماأرادها شعر

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له مامن صـداقته بد

وأيضا فان هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس الى لذات الجنة من المأكل والمشرب والمنكح اذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا الى ماوعدوا به من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

﴿ الباب العشرون في ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما ﴾

كل متعاطى العمل من الافعال النفيسة فانه يتقوى فيه بحسب الازدياد منـه ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا فباحتمال صـغار الامور يمكن احتمال كبارها وباحتمال كبارها يستحق الحمد ولهـذا قال أمير المؤمنين على رضى الله عنـه الايمان يبدو نكتة بيضاء في القلب كلمـا ازداد الايمـان ازداد ذلك البياض واذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق يبـدو لمعة سوداء كلما ازداد النفاق اسود القلب كله فالانســان يكمل في الفضـيلة بأربع درجات اثنين في الاعتقاد وهما أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة لاعن شبهات واهية واقناعات متداعية واثنين في الفعل وهما أن يرى العـادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنب الرذيلة ليتوصل الى الفضيلة وان يتعود

العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة وكما أنه يكمل بأربع درجات فانه ينتكس بأربع درجات درجتين في الاعتقاد وهما أن لا يعتقد شيئا من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلا وأن يعتقد عن تقليد اعتقادا فاسدا فيتلطخ به ودرجتين في العمل وهما أن لا يتعود العادة الجميلة رأسا وأن يتعود العادة القبيحة فمن صار فى الفضيلة الى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله بقوله أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ثم قال أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها وقيل لحكيم ألا تعظ ورثا فقال ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه فلا سبيل الى معالجة فتحه وللانسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال اما أن يكون فى ابتدائها فيقال هو عبدها وابنها ولهذا قال بعضهم من لم يخدم العلم لم يرعه والثانى أن يتوسطها فيقال هو أخوها وصاحبها والثالث أن ينتهى فيها بقدر وسعه ويتصرف فيها كما أراد فيقال هو ربها وسيدها ومنه قيل فلان ربانى فى العلم وان رب الشيء هو الذى يربه وسيده هو الذي يملك سواده أى جميعه وغاية الانسان في الفضيلة أن يقع منه أفعال الفضائل أبدا من غير فكر ولا روية لغلبة قواها عليه وبعد ماينافيها عنه كالصانع الحاذق فى صنعته وغاية الرذل في الرذيلة أن يقع منه أفعال الرذائل لغلبة قواها عليه ولهذا حد الخلق بأنه حال الانسان داعية الى الفعل من غير فكر ولا روية

﴿ الباب الحادي والعشرون في الفرق بين الخلق وبين التخلق ﴾

الفرق بين الخلق والتخلق ان التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج الى بعث وتنشيط من خارج والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج الى بعث من خارج والتخلق والتشبه بالافضل ضربان ضرب محمود وذلك ماكان على سبيل الارتياض والتدريب ويتحراه صاحبه سرا وجهرا على الوجه الذى ينبغى وبالمقدار الذى ينبغي واياه قصد الشاعر بقوله

*ولن أستطيع الخلق حتى تخلقا * ال قد قال النبي عليه الصلاة والسلام ما العلم الا بالتعلم وما الخلق الا بالتخلق وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراآة ولا يتحرى صاحبه الا حيث يقصد أن يذكر به ويسمى ذلك رياء وتصنعا وتشبعا ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشبعه كما وجد فى كتاب كليلة الطبع التكلف كما زدته(١) تثقيفا زاد تعقيفا وعلى ذلك قول الشاعر

وأسرع مفعول فعلت تغيرا * تكلف شئ فى طباعك ضده

واياه قصد عمر رضى الله عنه بقوله من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله عز وجل وحال المتشبع كالجرح يندمل على فساد فلابد أن ينبعث وان كان بعد حين كما قيل

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

وكما ان العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه فى تحريكه وان جاهد فى حركته الى اليمين تحرك نحو الشمال وكذا أيضا الشره والظلوم والمتهور وان جاهدوا أنفسهم في اخفائها فان قواهم تأبي مطاوعتهم وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله المتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبى زور تنبيها على انه كاذب بقوله وفعله فيتضاعف وزره وقد حمل على ذلك قوله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون واياه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله الشرك أخفى في أمتى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأقبح الرياء النفاق في الدين وأقبح النفاق ما كان فى أصل الاعتقاد وهو اظهار الايمان مع استبطان الكفر ولذلك جعل الله عقابهم أعظم فقال ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار

﴿الباب الثاني والعشرون في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم﴾

جميع الفضائل النفسية ضربان نظرى وعملى وكل ضرب منهما يحصل

---

(١) قوله تثقيفا فى المختار الثقاف ما تسوى به الرماح وتثقيفها تسويتها اهـ وهو ضد الحرف والعقيف المعوج اهـ م

قوله ينفر [illegible] ورم وتجافى عن البرء اهـ

على وجهين أحدهما بشرى يحتاج فيه الى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة وان كان فيهم من يكفيه أدنى مدارسة وفيهم من يحتاج الى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف الطبائع والزكاء والبلادة والثاني يحصل بفضل الهي نحو ان يولد انسان فيصير من غير تعلم من البشر عالما كعيسى بن مريم ويحيى بن زكرياء عليهما السلام وغيرهما من الانبياء الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة مالم يحصل للحكماء وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الانبياء أيضا في التنبية فكل ما كان بتدرب فقد يكون الطبع كمن يوجد صادق اللهجة سخيا وجريئا وآخر على عكس ذلك وقد يكون بالتعلم والعادة فمن صار فاضلا طبعا وعادة وتعلما فهو كامل الفضيلة ومن كان رذلا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة

﴿ الباب الثالث والعشرون في وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة ﴾

حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقة ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه ان يبرز ذلك فعلا أولم يمكنه وذلك بأن يكون على هيئة الاسخياء والشجعان والحكماء والعدول وان لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى فقال نعم أن تحسن خلقك وتنوى لكل أحد خيرا وقال عليه الصلاة والسلام انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم واعلم ان كل فعل يحتاج فيه الى ايجاده وتجويده وتزيينه دنيويا كان أو أخرويا ولكن متى كان أخرويا يحتاج فيه مع ذلك الى أمور لايتم ولا يكمل لابها وهو أن يجب أن يتعاطاها قصدا الى المكرمة ولا لم يعتد بها كما قال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وأن يجراه بخلوص طوية كما قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وأن لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أودفع مضرة فانه يكون فاعله ذلك تاجر ويجب عند بعض المحققين أن لا يطلب به منفعة أخروية أيضا فقد قيل من عبد الله تعالى لعوض

ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أولى ممن يفعله بمجاهدة نفس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ان استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل والا ففي الصبر على ماتكره خير كثير وقولهم الحق مر فهو باعتبار من لم تتهذب نفسه ولم يزل مرضه شعر

فمن يك ذا فم مر مريضا * يجد مرا به الماء الزلالا

وأما من كمل فانه يستطيب الحق وان كان ثقيلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم * وجعلت قرة عيني في الصلاة ومن أصلح خلقه وهذب نفسه فهو أعظم الملكين فمن ملك نفسه وقواه فهذبها وزكاها فقد اطلع بذلك على ملكوت السموات والارض وملك أطوع جيش بلا عطاء يلزمه وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين لجعل النبوة مخصوصة فيهم وجعل الملك عاما لهم تنبيها على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ونذكر بعد ذلك أنواع نعم الله تعالى وما يكتسب منها والله ولي الفضل والاحسان

﴿ الباب الرابع والعشرون في نعم الله الموهوبة والمكسوبة ﴾

نعم الله عز وجل وان كانت لاتحصى مفصلة كما قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها فانها بالقول المجمل خمسة أنواع الاول وهو أعلاها وأشرفها السعادة الاخروية واياها قصد تعالى بقوله وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف وهو أربعة أشياء بقاء بلا فناء وعلم بلا جهل وقدرة بلا عجز وغنى بلا فقر ولا يمكن الوصول الى ذلك الا باكتساب الفضائل النفيسة واستعمالها كما قال تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا وأوصل ذلك الى أربعة أشياء العقل وكماله العلم والعفة وكماله الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف وهي المعبر عنها

بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنيه وهي أربعة أشياء الصحة والقوة والجمال وطول العمر وبالفضائل المطيفة بالانسان وهى أربعة أشياء المال والعز والاهل وكرم العشيرة ولا سبيل الى تحصيل ذلك الا بتوفيق الله عز وجل وذلك بأربعة أشياء هدايته ورشده وتسديده وتأييده فجميع ذلك خمسة أنواع من عشرين ضربا ليس للانسان مدخل في اكتسابها الا فيما هو نفسي فقط * واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الاخروية وأما ماعداها فتسميته بذلك اما لكونه معاونا في بلوغ ذلك أو نافعا فيه وكل ماأعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة وهذه الاشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الاخروية متفاوتة الاحوال فمنها ماهو نافع في جميع الاحوال وعلى كل وجه ومنها ماهو نافع في حال دون حال وعلى وجه دون وجه وربما يكون ضره أكثر من نفعه فحق الانسان أن يعرفها بحقائقها حتى لايقع الخطأ عليه في اختياره الوضيع على الرفيع وتقديمه الخسيس على النفيس فالناس في متحرياتهم طالب خير وهارب من شر كما قال

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضرة واجتلاب المنفعه

والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعه

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ويقدر في الشيء انه رزق نافع وحشوه سم ناقع فلذلك يحق على العاقل أن يجلي بصيرته ويعرف من كل مايطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد حبلا يتعلق به فرأى حية فظنها مبتغاه فأخذها فلدغته وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقيل الخيرات ثلاث مؤثرة لذاتها ومؤثرة لغيرها ومؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها فالمؤثرة لذاتها السعادة الاخروية والنفسية والمؤثرة لغيرها الدراهم والدنانير فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي يستدفع بها لكانت هي والحصباء سواء والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم فمعلوم أن الرجل وان أزيلت للمشي فالانسان يريد أن يكون صحيح الرجل وان استغنى عن المشي ويقال أيضا الخيرات ثلاث نافع وجميل ومفيد والشرور ثلاث ضار وقبيح

ومؤلم وكل واحد من ذلك ضربان أحدهما مطلق وهو الذي يجمع الاوصاف الثلاثة في الخير كالحكمة فانها نافعة جميلة ولذيذة وفى الشر كالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم والثانى مقيد وهو الذى جمع شيئا من أوصاف الخيرات وشيئا من أوصاف الشرور فرب نافع مؤلم كجدع قصير أنفه فانه وان نفعه فى ادراك الثار فقد آذاه ورب نافع قبيح كالحمق فانه وان نفع من حيث ماقيل استراح من لاعقل له فهو جد قبيح ورب نافع من وجه ضار من وجه كمن فى سفينة نخاف الغرق فالقى متاعه في الماء فخلصت السفينة وكل ما نفعه ولذته وجماله أطول مدة وأغمر عائدة فهو أفضل فحق العاقل أن يرغب الى الله تعالى في أن يعطيه مافيه مصلحة مما لاسبيل له بنفسه الى اكتسابه وأن يبذل جهده مستعينا بالله عز وجل في اكتساب ماله كسبه وبلوغ الاعلى فالاعلى منه على الترتيب فبذلك يشرف من ضيع أنفس السنيات مع التمكن من تحصيله فهو دنىء الهمة راض بخسيس الحال وأشرفها ماذا حصل لم يغضب ولم يحتج فى حفظه الى أعوان وحفظة وكان نافعا عاجلا وآجلا ومطلقا في كل حال وكل زمان ومكان وذلك هو الفضائل النفسية ولا سيما العقل والعلم فاما القنيات الخارجة نحو المال والجاه فانها يقال لها الخيرات المتوسطة لانها تجذب الى الفضيلة مرة والى الرذيلة مرة لانها سبب للخيرات اذا كانت مع العقل وسبب للشرور اذا كانت مع الجهل وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سببا للشر بقوله انما أموالكم وأولادكم فتنة وقوله ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ولذلك قيل السعيد هو الخير العاقل غنيا كان أو فقيرا قويا كان أو ضعيفا * ان قيل ماالخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل بينهن فرق * قيل أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه والمختار غيره لاجله وهو الذى يتشوقه كل عاقل بل قد قيل هو الذي يتشوقه الكل لا مثنوية فان الكل يطلب فى الحقيقة الخير وان كان قد يعتقد فى الشر انه خير فيختاره فقصده الخير ويضاده الشر وهو المحبوب من أجل نفسه والمحبوب غيره من أجله قال النبى صلى الله عليه وسلم

لاخير فى خير بعده النار ولا شر فى شر بعده الجنة فجمل الخير المطلق الجنة والشر المطلق النار كما ترى فقد يقال لكل مايتوصل به الي الخير خير ولهذا سمى الله تعالى المال خيرا في قوله ان ترك خيرا لكن المال في الحقيقة يكون خيرا لبعض الناس وشرا لبعضهم فمعلوم انه كان شرا لمن قال تعالى فيه الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة فى الآخرة وهي الاربع التى تقدم ذكرها من البقاء بلا فناء والقدرة بلا عجز والعلم بلا جهل والغنى بلا فقر وقد يقال لما يتوصل به الى هذه السعادات الاربع سعادة وهى الستة عشر المتقدمة ويضادها الشقاوة وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به للانسان مزية على الغير وهى اسم لما يتوصل به الي السعادة ويضادها الرذيلة وأما النافع فهو مايعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير والنافع فى الشيء ضربان ضرورى وهو مالا يمكن الوصول الى المطلوب الا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين فى البلوغ الى النعيم الدائم وغير ضرورى وهو الذي قد يسد غيره مسده كالسكنجبين في كونه نافعا في قمع الصفراء فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع يسمى فضيلة وسعادة وخيرا لكونه مبلغا الي ذلك وموصلا اليه

﴿الباب الخامس والعشرون في حاجة بعض هذه الفضائل الي بعض﴾

قد ثبت بما تقدم ان الخيرات والفضائل خمسة أنواع أخروية ونفسية وبدنية وخارجية وتوفيقية فيجب أن يعلم ان بعض ذلك محتاج الى بعض اما حاجة ضرورية يجب لولم يوجد لاختل حال الآخر وذلك ان السعادة الحقيقية الاخروية لاسبيل الى الوصول اليها الا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا فنبه انه لامطمع لمن أراد الوصول اليها الا بالسعي ولاسبيل الى تحصيل الفضائل النفسية الا بصحة البدن وقوته وانه لاغنى لكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية فانه وان أمكن أن يتصور حصولها لمن لاأهل له ولا مال له ولا عشيرة فانه لايكمل الا بها

﴿ الباب السادس والعشرون في الفضائل المطيفة بالانسان ﴾

قد تقــدم ان ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء المــال والاهل والعز وكرم العشيرة وان هذه الاشياء نافعة فى بلوغ الفضــيلة الحقيقية والسعادة الاخروية وجارية مجرى الجناح المبلغ وانه لم تكن الحاجة اليها فى بلوغ ذلك ضرورية فأما المــال فصاحبــه يتمكن من فضائل اذا فقده تعذر بلوغها فمعــلوم ان كثيرا من القرب كالزكاة والحج يشكله الفقير فالفــقير فى تحرى المكارم كساع الى الهيجاء بغير ســلاح وكباز متصيد بلا جناح وفضله مغطى كماء تحت الارض ونار كامنة فى الصخر وما أصدق ماقال الشاعر

والمرء يرفعه الغــنى ✻ والفقر منقصة وذل

وقول الآخر

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ✻ ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أسألك الهدي والتقى والعفة والغنى وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المــال وأما الاهل فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر أهله وخالصوه صار له بهم عيون وآذان وايد قال الله تعالى حاكيا عن لوط صلى الله عليه وسلم لو أن لي بكم قوة أو آوى الى ركن شديد قال الشاعر

ألم تر أن جمع القوم يخشى ✻ وان حريم واحدهم مباح

وقال عليه الصلاة والسلام فى نفع الولد اذا مات الرجل انقطع عمله الامن ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعوله وقال ريح الولد من رائحة الجنة وقال نعم العون على الدين المرأة الصالحة فالمرأة مزرعة الرجل قيضها الله تعــالى ليزرع فيها زرعه كما قال تعالى نساؤكم حرث لكم وقال تعالى آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا وأما العز فبه يتأبى عن تحمل الذل ومن لاعز له لايمكنه أن يذود عن حريمــه ولذلك قيــل الدين والسلطان اخوان توأمان وقريبان مؤتلفان ومؤديان الى عمارة البلاد وصــلاح العباد وقيــل الدين أس

والسلطان حارس وما لاأس له فهدوم وما لاحارس له فضائع وسمى الله تعالى الحجة سلطانا لقهرها أولي البصائر وقال عز اسمه ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وأما كرم العشيرة فانه يقال له الحسب والشرف أخص بمآثر الآباء والعشيرة ولذلك قيل للعلوية أشراف ومن الناس من لايعد الاصل فضيلة وقيل المرء بنفسه واستدل بقول علي أمير المؤمنين رضي الله عنه الناس أبناء مايحسنون وقوله قيمة كل امرئ مايحسنه وقول الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ✽ يغنيك محموده عن النسب

وقول الحكيم الشرف بالهمم العالية لابالعظام البالية وليس ذلك كما ظن لان كرم الاعمام والاخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له فالفرع وان كان قد يفسد أحيانا فمعلوم ان أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة فانه لايكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ولذلك قال الشاعر

وما يك من خير أتوه فانما ✽ توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطيّ الاوشيجة ✽ وتغرس الافي منابتها النخل

وقيل

ان السريّ اذاسري فبنفسه ✽ وابن السري اذا سرى أسراهما

ويبين ذلك ان الاخلاق نتائج الامزجة ومزاج الاب كثيرا مايتأدى الى الابن كالالوان والخلق والصور ومن أجل تأديها اليه قال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الاكفاء وقال اياكم وخضراء الدمن قيل يارسول الله وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء وما ذكر من نحو قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الناس أبناء مايحسنون حث به الانسان على التماس العلي ونهي عن الاقتصار على مآثر الآباء وان المآثر الموروثة قليلة (١) الغناء سريعة الفناء مالم تضم معها فضيلة النفس لان ذلك انما حمد لكي يوجد المرء مثله ومتى أخلف الفرع وتخلف فكانه يخبر بأحد شيئين اما بتكذيب من يدعي

١ الغناء بالغين والفتح والمد النفع اه م

الشرف بعنصره أو بتكذيبه في انتسابه الى ذلك العنصر وما فيهما حظ المختار والمحمود أن يكون الاصل في الفصل راسخا والفرع به شامخا كما قال الشاعر

زانوا قديمهم بحسن حديثهم * وكريم أخلاق بحسن خصال

ولم يجتمع له الامران فلان يكون شريف النفس دنيء الاصل أحمد من أن يكون دنيء النفس شريف الاصل كما قيل

ذا النفس لم يثمر وان كان شعبة * من المثمرات اعتده الناس في الحطب

فما الحسب الموروث لادر دره * بمحتسب الا بآخر مكتسب

ومن كان عنصره في الحقيقة سنيا وفي نفسه دنيا فذلك أتى اما من اهماله نفسه ورسومها واما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة فليس سببه سببا واحدا

﴿ الباب السابع والعشرون في الفضائل الجسمية ﴾

قد استهان قوم بذلك فقالوا كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن بريئا من الامراض الشاغلة عن تحرى الفضائل المقتنية وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعا وربانا وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة العظام التي تجرى للبدن كالالواح للسفينة والعصب الذى يجرى له مجرى الرباط الذى شد به الالواح واللحم الذى يجرى له مجرى الحشو للرباطات والجلد الذى يجرى مجرى الغشاء لجميعها فاذا اعتدلت هذه الاربعة بأن يعتدل فيها الاربع القوى وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة سمى ذلك الصحة ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع وأما القوة فهى جودة تركيب هذه الاركان الاربعة وهي العظام والعصب واللحم والجلد وما يتبعها وبها يصلح البدن للسعى والتصرف فى أمور الدنيا والآخرة وأما الجمال فنوعان أحدهما امتداد القامة الذى يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية فان الحرارة اذا حصلت رفعت أجزاء الجسم الى العلو كالنبات اذا نجم فكما كان أطاب العلو في سنه كان أشرف فى جنسه والاعتبار بذلك استعمل في كل ماجاد في جنسه

العالى والفائق وكثر المدح بطول القامة نحو قوله

كان زرود القبطرية علقت * علائقها منه بجزع مقوم

وقول آخر

أشم طويل الساعدين كأنما * يناط نجادا سيفه بلواء

ثانى من الجمال أن يكون ممدودا قوى العصب طويل الاطراف ممتدها رحب الذراع غير منقل بالشحم واللحم كما قال

من قد قد السيف لامتضائل * ولا رهل (٢) لباته وبآدله

ولا نعنى بالجمال ههنا مايتعلق به شهوة الرجال والنساء فذلك أنوثية وانما نعنى به الهيئة التي لاتنبو الطباع عن النظر اليها وهو أدل شئ على فضيلة النفس لان نورها اذا أشرق تأدى الى البدن اشراقها وكل شخص فله حكمان أحدهما من قبل جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره وكثيرا مية الارمان ولذلك فزع أصحاب الفراسة فى معرفة أحوال النفس أولا الى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء قل صورة حسنة يتبعها نفس ردية فنقش خواتيم مقروء من الطين وطلاقة الوجه عنوان مافى النفس وليس فى الارض شئ الا ووجهه أحسن مافيه قال النبى عليه الصلاة والسلام أطلبوا الحاجات من حسان الوجوه وقال عمر رضى الله عنه اذا بعثتم رسلا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم فالوجه والعين يظهر فيهما آثار النفس كالمرآة يستدل بها على ولذلك يظهر فيهما أثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها ولذلك عبر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم بفلان وجه القوم وعينهم حتى قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه وكون الوجه المقبول في دلالته على فضيلة النفس وان لم يكن حكما لازما فهو على الاعم والاكثر * وحكى أن المأمون استعرض جيشا فعرض به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه ألكن فأمر باسقاطه وقال ان الروح اذا كانت

٢ قوله لباته اللبة لحم الثدى وقوله بآدله جمع بأدلة بالهمز بعد الباء وهى مابين العنق الى المرفق

ظاهرة كانت صباحة واذا كانت باطنة كانت فصاحة وأراه لاظاهر له ولا باطن وكفاك من البيان فى فضل كمال الجسم قول الله تعالى ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم وقال وزادكم فى الخلق بسطة وأما طول العمر فلولاه اقل حظ الانسان من السعادات الدنيوية التى لولاها لما نيلت السعادة الاخروية والله ولى الفضل والاحسان وعليه المعول والتكلان

﴿ الباب الثانى والعشرون مايتولد من الفضائل النفسية ﴾

أمهات الفضائل النفسية وان كن أربعا فلها بنات هن أمهات الفضائل أخر * وبيان ذلك ان العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأى وتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم وجودة الحفظ والشجاعة متى تقوت تولد منها الجود في حال النعمة والصبر فى حال المحنة والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال

خلقنا رجالا للتجلد والاسى * وتلك الغواني للبكا والمآتم

والعفة اذا تقوت ولدت القناعة والقناعة تمنع عن الطمع في مال غيره فولدت الامانة والعدالة اذا تقوت تولد الرحمة والرحمة هي الاشفاق من أن يفوت ذا حق حقه فهى تولد الحلم والحلم يقتضي العفو فالانسانية والكرم يجمعان هذه الفضائل وذلك ان الانسانية هى الفضائل النفسية المختصة بالانسان وبقدر مايكتسبه الانسان يستحقها وفيه تفاصيل كثيرة كما تقدم فى الفرق فيما بين الانسان والانسان فمنهم من قد ارتفع حتي لحق أفق الاملاك فلو تصورنا ملكا جسميا لكان هواياه لارتفاعه عن الانسانية الا بالصورة التخطيطية وعلى هذا قوله تعالى ان هذا الا ملك كريم ومنهم من اتضع حاله حتى صار في أفق البهائم فلو تصورنا كلبا أو حمارا منتصب القامة متكلما لكان هواياه لانسلاخه عن الانسانية الا بالصورة التخطيطية وعلى هذا قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل ومنهم من هو في وسط هذه فى درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح أن يقال فلان أكثر انسانية من فلان وما يختص به لفظ الانسانية فهى

الأخلاق والافعال المحمودة فأما المذمومات من الافعال فتشارك الانسان فيها البهائم والشياطين أما المروءة فلها اشتقاقان ففي احداهما مايقتضي أن تكون هي والانسانية متقاربتين وهو ان يجعل من قولهم مرؤ الطعام وامرأه اذا تخصص المريء لموافقة الطبع وكأنها اسم للاخلاق والافعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون اسما للافعال المستحسنة كالانسانية والثاني أن تكون من المرء فتجعل اسما للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة فتكون كالرجولية وذلك أخص من الانسانية اذ الانسانية يشترك فيها الرجال والنساء والمروءة أخص فكثيرا مايكون فضيلة للمرأة يكون رذيلة للرجل كالبله والخفة والجبن ولهذا قيل أفضل أخلاق الرجل أرذل أخلاق النساء فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن * وقيل لمعاوية ما المروءة فقال اطعام الطعام وضرب الهام *وقيل للاحنف فقال أن لا يفعل في السر مايستحي منه في العلانية *وقيل لآخر فقال جماعها في قول الله عز وجل ان الله يأمر بالعدل والاحسان * وأما الكرم فاسم لجماعة الاخلاق والافعال المحمودة اذا ظهرت بالفعل والحرية مثله لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والاغراض الدنيوية * وذكر بعض الحكماء ان الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله تعالى أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة فكل كرم حرية وليس كل حرية كرما وأيضا فالحرية تتعلق بالتعفف عن الاخذ وأكثر الكرم يتعلق بالانفاق أكثر ويضاد الكرم اللؤم والحرية العبودية أعني المذكورة في قول الشاعر

والعبد لا يطلب العلاء ولا * يعطيك شيئا الا اذا رهبا

وكما ان الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ولا يدخل في الحرية والكرم النساء فهن مستخدمات بل مستعبدات ولذلك روى لو أمر الله مخلوق بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن * ان قيل ماحقيقة قول الله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم * قيل لما كان الكرم اسما للافعال المحمودة التي تقدم ذكرها وهذه الافعال انما تكون فاضلة اذا كان عن علم وقصد بها

أشرف الوجوه أي وجه الله تعالى وذلك هو التقوي فليس التقوى الا العلم وتحرى الافعال المحمودة كان كل من اتقى أكرم والعزيز الذى يأبى تحمل المذلة واشتقاقه من العزاز كالمتظلف فى الامتناع من تناول الشهوات المذلة وأصله من الظلف وهي الارض الصلبة وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكريم فقال الكريم يأبي أن يعصى له والعزيز يأبى أن يعصى عليه والظرف اسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجة تشبيها بالظرف الذى هو الوعاء ولذلك قال اعرابى فلان حاضن الشرف ومقر الفضل ولكونه واقعا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه ظريف فالظرف أعم من الحرية والكرم وأما الفتوة فكالمروءة فانها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الانسانية لكن هي بالرجولية أشبه وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصرف لكونها مشاركة له فى جميع أفعالها لافي الغرض فان غرض الفتيان استجلاب محمدة الاقران وغرض الصوفية استجلاب محمدة الرحمن بل مجرد مرضاته تعالى وأما الحسب فقد يقال فيما يختص الانسان به فيعده من مآثره وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه والشرف نحوه لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء

(الباب التاسع والعشرون في الفضائل التوفيقية)

التوفيق موافقة ارادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره وان كان فى الاصل موضوعا على وجه يصح استعماله في السعادة والشقاوة فقد صار متعارفا في السعادة فقط والاتفاق مطاوعة التوفيق لكن قد يستعمل فى السعادة والشقاوة جميعا فيقال اتفاق جيد واتفاق رديء والتوفيق مما لا يستغنى الانسان عنه في كل حال كما قيل لحكيم ما الذى لا يستغنى عنه أحد فى كل حال فقال التوفيق وأنشد

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فالسعادة التوفيقية هى الهداية والرشد والتسديد والتأييد فيجب أن يعلم أن لاسبيل لاحد الي شيء من الفضائل الا بهداية الله تعالى ورحمته فهو مبدأ

الخيرات ومنتهاها كما قال الله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وخاطب فقال
ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من
يشاء وقال النبي صلي الله عليه وسلم مامنكم من أحد يدخل الجنة الا برحمة الله
تعالى أي بهدايته قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله
برحمته أي بهدايته تنبيها على انه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان
لنا سبيل الى ذلك وللهداية ثلاث منازل فى الدنيا الاول تعريف طريق الخير
والشر المشار اليهما بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد خول الله تعالى اهدى
كل مكلف بعضه بالعقل وبعضه بألسنة الرسل واياه عنى بقوله وأما ثمود
فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثاني مايمد به العبد حالا فحالا بحسب
استزادته من العلم والعمل الصالح واياه عنى بقوله والذين اهتدوا زادهم هدى
وآتاهم تقواهم والثالث نور الولاية التي هي فى أفق نور النبوة واياه عنى بقوله
تعالي قل ان هدى الله هو الهدى فأضاف ذلك الى لفظة الله تعظيما له ثم قال
هو الهدى فجعله الهدى انطلاقا وبقوله ياأيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل
لكم فرقانا أى نورا يفرقون به بين الحق والباطل وكل ذلك يسمى النور والحياة
نحو أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية وقال أفمن شرح الله صدره
للاسلام فهو على نور من ربه وبحرى هذه المنازل الثلاثة يتوصل الى الهداية
الى الجنة المذكورة في قوله تعالي وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذ وما كنا
لنهتدي لولا أن هدانا الله والرشد عناية الهية تعين الانسان عند توجهه فى أموره
فتقويه على مافيه اصلاحه وتفتره عما فيه فساده وأكثر مايكون ذلك من
الباطن نحو قوله تعالي ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين وكثيرا
مايكون ذلك بتقوية العزم أو فسخه واليه توجه قوله تعالى واعلموا ان الله يحول
بين المرء وقلبه والتسديدان يقوم ارادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليهجم
عليه في أسرع مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المؤل بقوله تعالى اهدنا
الصراط المستقيم والنصرة من الله تعالى معونة الانبياء والاولياء وصالحي العباد

بما يؤدى الى صلاحهم عاجلا و آجلا وذلك يكون تارة من خارج يقيضه الله تعالى فيمينه وتارة من داخل بأن يقوى قلوب الاولياء أو يلقى رعبا في قلوب الاعداء وعلى ذلك قوله تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وقوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وأما مايختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها الدولة وعلى هذا قوله تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس وقوله فى وصف الفيء كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم والتأييد تقوية أمره من داخل البصيرة ومن خارج بقوة البطش ومن الاول قوله تعالى اذ أيدتك بروح القدس والعصمة فضل الهي يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه وان لم يكن منعا محسوسا واياه عني بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقد روى أن يوسف رأى صورة يعقوب عليهما السلام وهو عاض علي ابهامه فأحجم وليس ذلك لمانع ينافي التكليف كما تصوره بعض المتكلمين فان ذلك تصور منه وتذكر لما كان قد حذره منه وعلى هذا قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن عصمته تعالى أن يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين واعلم أن رشده تعالي للعبد وتسديده ونصرته وعصمته تكون بما يخوله من الفهم الثاقب والسمع الواعى والقلب المراعى وتقيض المعلم الناصح والرفيق الموافق وامداده من المال مالا تقعده به عن مغزاه قلته ولا تشغله عنه كثرته ومن العشيرة والعز مايصونه عن سفه السفهاء وعن الغض منه من جهة الاغنياء وان خوله من كبر الهمة وقوة العزيمة مايحفظه عن الاشياء المدنية والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية

﴿ الباب الثلاثون فى تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا ﴾

العقل والعفة والشجاعة والجود والعدالة وسائر الفضائل تتلازم فان العقل اذا أشرق عقل صاحبه عن الاقدام على مايورثه مذمة ويحمله على الاقدام على المخاوف التى تورثه المحمدة وعلى أن يتم تفضل مافي يده لمن يحتاج اليه وأن يبذل لكل ذى حق حقه وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة وكذا اذا كان عدلا يحمله عدله على ترك تناول مالا يجوز تناوله وأن لايحجم عما يلزمه الاقدام عليه وأن لايبخل بفضل مافي يده واذا كان شجاعا لاتقهره شهوته على تناول مالا يجوز تناوله وعلى ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة والسماحة شجاعة فقال

أيقنت أن من السماح شجاعة * تدمى وان من الشجاعة جودا

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم دفع الشهوة جهادا فقال جهادك هواك وجعلت العفة جودا فقيل الجود جودان جود بما في يدك وجود عما في يد غيرك وهو أعظمهما وهذه الفضائل اذا حصلت حصل بها الانسانية والحرية والكرم وعنها يتأصل الاسلام والايمان والتقوى والاخلاص

﴿ الباب الحادى والثلاثون في البواعث على فعل الخير وتحري الفضائل ﴾

البواعث على تحرى الخيرات الدنيوية ثلاث أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة فالاولى من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة والثانية من مقتضى الحياء وهى من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا والثالثة من مقتضى العقل وذلك من فعل الحكماء ولهذه المنازل الثلاث قيل خير ماأعطى الانسان عقل يردعه فان لم يكن فحياء يمنعه فان لم يكن فخوف يقمعه فان لم يكن فمال يستره فان لم يكن فصاعقة تحرقه تريح منه العباد والبلاد وكذا البواعث على الخيرات الاخروية ثلاث الاول الرغبة فى ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه وذلك منزلة العامة والثاني رجاء حمده ومخافة ذمه وذلك منزلة الصالحين والثالث طلب مرضاته تعالى فى التحريات وذلك منزلة النبيين والصديقين

والشهداء وهي أعزها وجودا ولذلك قال بعضهم أفضل مايتقرب به العبد الى الله تعالى أن يعلم انه لايريد العبد من الدنيا والآخرة غيره قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وقيل الرابعة ألاتسألين الله تعالي في دعائك الجنة فقالت الجار قبل الدار فبهذا النظر قال بعضهم من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم وقال بعض العلماءهذه المنازل الثلاثة منازل الظالم والمقتصد والسابق وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ماروى عنه عليه الصلاة والسلام سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فقد قال بعض العلماء مساءلةالعلماء ترغبك من الله تعالى في ثوابه وتخوفك من عقابه ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل البارى

﴿ الباب الثانى والثلاثون في الموانع من تحرى الفضائل ﴾

وذلك ضربان قصور وتقصير فاما القصور فبأن لاتكون له المعانى العشرة التى قدمناها ولا التمكن من اكتسابها أو يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله عائق مرضى أو شغل ضرورى لعذره كحاجة الي السعي فيما يسدبه جوعته ويستر به عورته وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالي لايكلف الله نفسا الا وسعها ودواء الامرين الفزع الى الله تعالي والتضرع اليه بان يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته وأما التقصير فاربعة أشياء الاول أن يكون انسانا لايعرف الحق من الباطل ولا الجميل من القبيح فبقى غفلا فدواؤه سهل وهو التعليم الصائب والثانى أن يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسنا فتعاطاه وأمره أصعب من الاول لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة حتى يتعودها وان كان قد قيل ترك العادة شديد والثالث أن يعتقد فى الباطل والقبيح أنه حق وجميل فتربى على ذلك ومداواة ذلك صعب جدا فقد صار ممن طبع على قلبه اذا تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه مايؤدي حذفه منه الى حرقه وفساده والرابع أن يكون مع جهله وتربيته على

الاعتقاد الفاسد شريرا في نفسه يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة وذلك أصعب الوجوه والي نحوه قصد من قال من التعذيب تأديب الذيب ليهذب وغسل المسح ليبيض فالاول من هؤلاء الاربعة يقال له الجاهل والثاني يقال له الجاهل والضال والثالث يقال له جاهل وضال وفاسق والرابع يقال له جاهل وضال وفاسق وشرير

﴿ الباب الثالث والثلاثون في الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى أقصى الرذائل ﴾

للانسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة وبقوله فاستبقوا الخيرات ومدح قوما بقوله يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وعن الانحدار منها نهى الله تعالى بقوله ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين وبقوله ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم وذم قوما شأنهم ذلك بقوله ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم وبقوله ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم وبقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا فان الآية تقتضى هذا المعنى وان كان ظاهرها يدل على الجهل الذى يورثه الهرم فالخيرات يترقي فيها فتبلغ الي أشرف المنازل باربع درجات وينحدر فتبلغ الى أرذل المنازل باربع درجات أيضا فاما درجات الارتقاء فاولها أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك معاودتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وثانيها أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ويسارع فيها بقدر وسعه وذلك درجة الصالحين وثالثها أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطى الحسنات من غير تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه وامانة شهواته وذلك منزلة الشهداء ورابعها أن يكون مع هذه

الاحوال المتقدمة يرضى ظاهرا وباطنا بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئا من أمره ويعلم ان الله تعالى أولى به من نفسه وذلك درجة الصديقين وهذه المنازل الاربعة المرادة بقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وأجدر أن تكون هذه المنازل الاربعة هي المأمور بها في قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون واعلم ان منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة فمن رضي عن الله عز وجل فقد رضي الله عنه لقوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه فجعل أحد الرضاءين مقرونا بالآخر فمن بلغ هذه المنازل عرف خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وخطب مودة الملأ الاعلى وحظى بتحيتهم المنيئة قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وأما درجات الانحدار والارتداد عنها فأولاها الكسل عن تحرى الخيرات وتورثه ذلك الزيغ المعنى بقوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وثانيها الغباوة وهى ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه بقوله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وثالثها الوقاحة وهو أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة قلب كما قال تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أوأشد قسوة ورابعها الانهماك في الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه ويحسنه ويحيه فيورثه ذلك ختما على قلبه واقفالا عليه كما قال تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وكما قال أم على قلوب أقفالها والكسل سبب الغباوة والغباوة سبب الوقاحة والوقاحة سبب الانهماك كما أن الزيغ يوجب الرين والرين يوجب القساوة والقساوة توجب الختم والاقفال فحق الانسان أن يراعي نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر كما قيل

[illegible]

وقد قال الله تعالى فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا وان تقاتلوا معى عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين فدل أن تعودهم أول مرة أدى لهم الى أن صار محكوما عنهم انه لايتأتي منهم الخروج معه صلى الله عليه وسلم بوجه

﴿ الباب الرابع والثلاثون في بيان عبادة الله تعالى فى تهذيب الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم ﴾

الناس متى تركوا تعاطى الاحسان والانفضال وتحرى العدالة فيما بينهم فلا يأتوا بها لاخلقا ولا تخلقا ولا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة فصاروا فى تعاطى الشر سواء بسواء ثنيات كاسنان الحمر عدم فيهم الفضيلة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لايزال الناس بخير ماتباينوا فاذا تساووا هلكوا فحينئذ ان بقى فى نفوسهم أثر قبول الخير ان شاء الله تعالى فيهم من يهديهم باللسان والسيف المحق كبعثة النبى صلى الله عليه وسلم في العرب لما بقى فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام وان قل فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفا جائرا كما قال تعالي وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ينتصف من أوليائه بأوليائه ومن أعدائه بأعدائه وعاملهم بما عامل به بنى اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصر وقد ذكر ذلك فى قوله تعالي فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد الآية وان عدم منهم أثر القبول بعث فيهم عذابا يفنيهم اما طوفانا اوجائحة أو نارا محرقة أو ريحا فيها عذاب أليم فيطهر منهم البلاد ويريح منهم العباد كما صنع الله بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وذلك كالارض اذا استولى عليها الشوك لابد من تسليط النار عليها حتى تعود بيضاء

﴿ الباب الخامس والثلاثون فى أصناف الناس ﴾

الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد خص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الاعمال مايتبلغ به الى جنة المأوى دون مايقتصر به على الحياة

الدنيا والعام اذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف التقليدات ومن أكثر الاعمال بما يؤدى الي منفعة دنوية واذا اعتبر بأمور الدنيافالخاص مايتخصص بأمور البلد بما يحرم من افتقاده احدى السياسات المدنيــة والعام مالا يحرم بافتقاد شئ منها وهــم من وجه آخر ثلاثة خاصــة وعامة وأوساط والاوساط هم المسمون فى كلام العرب بالسوقة فالخاص هوالذى يسوس ولايساس والعام هو الذى يساس ولا يسوس والوسط هوالذى يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه ومن وجه آخر ثلاثة أضرب أصحاب الشهوات وهمهم الجدة واليسار والاكل والشرب والبعال وأصحاب الكرامة والرياسة وهمهم المدح واستجلاب الصيت والمحمدة وأصحاب الحكمة وكل واحد منها يستعظم من هومن جنسه ولهذا احتاج السلطان الى كل ذلك وتعنيته بكون معظما عنــد كل ضرب من الجميع من الناس فيعظمه أصحاب الحكمة لحكمته وأصحاب الكرامة لكرامته والرياسه لرياسـته وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قنياته ومن وجه آخر ثلاثة أضرب ملكي وشيطاني وانسي فالملكى الذى يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقا والشيطاني الذى يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت الى مقتضى العقل والانسى الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا وهم المذكورون في قوله تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنــة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم وهو المؤمن والفاسـق والكافر وهم المذكورون في قوله تعــالى وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنــة ماأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون ومن وجه آخر ضربان أبرار وفجار فالابرارثلاثة أضرب ظالم ومقتصــد وسابق وهــم المذكورون في قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية وهــم أيضا أعنى الابرار ثلاثه أضرب أنبياء للمشاهدة والهداية لقوله تعــالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وحكماء وهم الاولياء

للمراقبة والرعاية لقوله تعالى ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون وعوام للمجاهدة والكتابة وهم المذكورون في قوله تعالى يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وهم أيضا ضربان عبد بالطبع وان كان ملكا وملك بالطبع وان كان عبدا مسترقا والملك من حصل له الفضائل النفسية التى بها يصير الانسان بحيث يصح أن يوصف بأنه ربانى والهى وملكى ويصح أن يكون خليفة الله في أرضه والعبد من قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش وقال بعض الحكماء مامن انسان الا وفيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ليكون الانسان مشاركا لهما فى الجنسية وان كان مباينا لهما فى النوعية فمن الناس غشوم كالاسد وعاث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وجامع كالنمل ووقح كالذباب وبليد كالحمار وألوف كطير الوفاء وصنع كالسلفة وأنف كالاسد والنمر وغيور كالديك وهاد كالحمام ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الاشجار ولا يقطف ثمرا ولا يكسر شجرا ولا يؤذى بشرا ثم يعطى الناس مايكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه وهو فى الاشجار كالاترج يطلب حملا ونورا وعودا وورقا والمنافق الشرير هو فى الحيوانات كالقمل والارضة وفى الاشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار وييبس الاشجار وكالشمرة التى قل ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها

﴿ الفصل الثانى فى العقل والعلم والنطق ومايتعلق بها وما يضادها ﴾

﴿ الباب الاول فى فضيلة العقل ﴾

العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه بدلالة ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أول ماخلق الله تعالى العقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ماخلقت خلقا أكرم علي منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب ولو كان على ماتوهمه قوم انه عرض لما صح أن يكون أول مخلوق لانه محال وجود شئ من الاعراض قبل وجود جوهر يحمله وقال عليه الصلاة والسلام لادين لمن لاعقل له ولا يعجبنكم اسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله ومن هذا الوجه أشار النبي عليه الصلاة والسلام قالت الحكماء من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه وبالعقل صار الانسان خليفة الله عز وجل ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا عن الانسان وبما غرسه الله تعالى في الانسان منه اهتدى من وفقه الله تعالى الى تزكية نفسه المذكورة في قوله تعالى قد أفلح من زكاها وحصل به حرث الآخرة في قوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وثمرة حرث الاخرة على التفصيل سبعة أشياء بقاء بلا فناء وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغني بلا حاجة وأمن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل والى العقل أشار بقوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح الآية فمعنى نور السموات أى منورها والنور هو العقل وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل ويقال العقل على ضربين أحدهما بغير اضافة وهو المذكور بأنه أول مخلوق والثاني بالاضافة الي آحاد الناس فيقال عقل فلان وهو من الاول بمنزلة الضوء من الشمس

﴿ الباب الثاني في أنواع العقل ﴾

العقل عقلان غريزي وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة ومستفاد وهو الذى تتقوى به تلك القوة وهذا المستفاد ضربان ضرب يحصل الانسان حالا فحالا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل وضرب باختيار منه فيعرف كيف

حصل ومن أين حصل وحصوله بعد اجتهاده في تحصيله ولكون العقل غريزيا ومستفادا قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه

* العقل عقلان مطبوع ومسموع *

فلا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

والى الاول أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل والى الثانى أشار عليه الصلاة والسلام بقوله لعلى رضى الله عنه اذا تقرب الناس الى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس فى الدنيا وعند الله في الآخرة وقال على رضى الله عنه ما اكتسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه الى هدى أويرده عن ردى ولاختلاف النظرين قال قوم العقل مبدع وقال قوم هو مكتسب وكلا القولين صحيح من وجه ووجه والعقل الغريزى للنفس بمنزلة البصر للجسد والمستفاد لها بمنزلة النور وكما ان البدن متى لم يكن له بصر فهو أعمى كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة أى عقل غريزى فهي عمياء وكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجو لم يجد بصره كذلك العقل اذا لم يكن له نور من العلم مستفاد لم يجد بصيرته ولذلك قال تعالى ومن يجعل الله له نورا فماله من نور وقد جعل للعقل نظر وادراك ورؤية وابصار وجعل له اضداد من العمي وغيره وقال عزوجل وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون وقال ما كذب الفؤاد مارأى وقال وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر لان بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر قال الله تعالي فانها لاتعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي فى الصدور فذمهم بفقدان البصيرة تنبيها ان فقدانها اختيارى اذ هو تركهم استفادة العلم وأكثر فقدان البصر ضرورى وقال تعالى الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعا فلولا ان العين أريد منها البصيرة لما قال عن ذكرى لان الذكر لايدرك بحاسة العين وقال ابن عباس رضى الله عنهما لمن عير بفقدان

البصر انا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم وكيف لايكون فقدان البصيرة أعظم ضررا من فقدان البصر وقد تقدم ان البدن بمنزلة فرس والنفس بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه

﴿ الباب الثالث المكتسب من العقل الدنيوى والاخروى ﴾

العقل المكتسب ضربان أحدهما التجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة والثاني العلوم الاخروية والمعارف الالهية وطريقا هما متنافيان وقد ضرب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لذلك ثلاثة أمثال فقال ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لاترجح احداهما الا بنقصان الاخرى وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما وبعد من الآخر وكالضرتين اذا أرضيت احداهما أسخطت الاخرى ولذلك ترى قوما أكياسا في تدبير الدنيا بلهاء في تدبير الآخرة وقوما أكياسا في أمور الآخرة بلهاء في أمور الدنيا حتى قال عليه الصلاة والسلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل لمن نسب بعض الصالحين الى البله أكثر أهل الجنة البله ولاختلاف طريقيهما قال الحسن رحمه الله أدركنا قوما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين واقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال لرجل وصف نصرانيا بالعقل مه انما العاقل من وحد الله تعالى وعمل بطاعته وقال تعالى حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ومن تصور اختلاف الطريقين أعني طريق الدنيا وطريق الآخرة لم تعرض له الشبهة التي عرضت لقوم قالوا لو أن هنا حقا لما جهله الذين لم يلحق شأواهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات وينبوا الحكم والسياسات وذلك كما انه من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما لايوجد الا في الغرب أو يظفر سالك طريق الغرب بما لايوجد الا في الشرق كذلك من المحال أن يظفر سالك معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ان الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وبقوله ولكن أكثر الناس لايعلمون يعلمون ظاهرا من

الحياة الدنيا الآية ولا يكاد يجمع بين معرفة الدنيا والآخرة معا على التحقيق والتصديق الا من رشحهم الله تعالى لتهذيب الناس في أمر معاشهم ومعادهم جميعا كالانبياء وبعض الحكماء ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى عسير لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم مامنا نبي الا أذنب أوهم

(الباب الرابع منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها)

العقل اسم عام لما يكون بالقوة أو بالفعل ولما كان غريزيا وما كان مكتسبا وهو في اللغة قيد البعير لئلا يند وسمى هذا الجوهر به تشبيها على عادتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات وخص بناء المصدرية لانه لما كان يستعمل تارة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور ومرة للمعقول نحو خلق وأمر لكن يتصور منه كونه سببا لتقيد الانسان به وكونه مقيدا له عن تعاطي مالا يجمل وكونه معتدا به من بين الحيوان والنهى في الاصل جمع نهية أو اسم مفرد نحو جمل وصرد أو وصف نحو دليل ختع وسائق حطام وجعل اسما للعقل الذي انتهي من المحسوسات الى معرفة مافيه من المعقولات ولذلك أحيل أربابه على تدبر معانى المحسوسات في قوله تعالى أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات لاولى النهى وقال وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى والحجر أصله من الحجر أى المنع وهو اسم لما يلزمه الانسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه وعلى ذلك قوله تعالى هل في ذلك قسم لذى حجر وسمى حجى من حجاه أى قطعه منه الاحجية فكانه سمى بذلك لكونه قاطعا للانسان عما يقبح وأما اللب فهو الذي قد خلص من عوارض الشبه وترشح لاستفادة الحقائق من دون الفزع الى الحواس ولذلك علق الله تعالى فى كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الامور المحسوسة نحو قوله ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل

والنهار لآيات لاولى الالباب فوصفهم بهداية الله اياهم وقد سمى الله تعالى العلم نورا والجهل ظلمة فقال الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا الآية وسماه روحا فى قوله تعالي وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت الآية وسماه حياة والجهل موتا بقوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية وقوله وما يستوى الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع الآية وسماه ماء بقوله أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الآية والايمان زبدة العقل والعمل ولذلك قال الله تعالي في مواضع ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فعلق به ماعلق بهما وسمى العقل قلبا وذلك انه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سمي به ولذلك عظم الله تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لاجله قال تعالى يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وقال من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب وقال ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فنبه أن القلب في الحقيقة يكون قلبا اذا كان متخصصا بما قد أوجد لاجله وما أوجد لاجله هو المعارف الحقيقية وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان في البدن مضغة اذا استقامت استقام البدن واذا اعوجت اعوج البدن ولما كان أشرف المعارف هو مايختص به القلب قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك خصه بالذكر

(الباب الخامس في جلالة العقل وشرف العلم)

العقل حيثما وجد يكون محتشما حتى ان الحيوان اذا رأى انسانا احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار ولذلك تنقاد الابل للراعي وكذلك جماعة الرعاة اذا رأوا منهم من كان أوفر عقلا وأغزر فضلا فيما هم بصدده انقادوا لهم طوعا فالعلماء اذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لا كثرهم علما وأوفرهم نفسا وأفضلهم عقلا ولا ينكر فضله الا كل متدنس بالمعايب متطلب للرياسة حافظ على غرض دنيوى قد جعل عقله خادما لشهوته فاحفظه على رياسته ينكر فضل الفاضل ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي صلى الله عليه

وسلم قصدوه ليقتلوه فما كان الا وقع طرفهم عليه فرؤى لهم نور الله تعالى مهربا عنه فألقى في قلوبهم منه روعة فهابوه فمن مذعن له طائعا وخبيث لا ينكره بعد الا جاحدا ولهذا المعنى قال الشاعر

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تغنيك عن خبره

وقد تقدم أن الانسان لم يتميز عن البهائم الا بالعقل ولم يشرف الا بالعلم ومن شرف العلم أن كل حياة انفكت منه فهو غير معتد بها بل ليست في حكم الموجودة فان الحياة الحيوانية لم تحصل مالم يقارنها الاحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ويتألم بما يخالفه ويهرب منه وذلك أخس المعارف فمقتضى الحياة الانسانية أنها اذا تعرت من المعارف المختصة بها أن لا يعتد بها ولذلك سمى الله تعالى الجاهل ميتا في غير موضع من كتابه فقال أومن كان ميتا فأحييناه ولاجل أن الحياة تقارن العلم سمى الله تعالى العلم روحا في قوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقد ذكرنا أن حاجة الانسان الي العلم أكثر من حاجته الى المال لان العلم نافع لامحالة ونفعه دائم في الدنيا والآخرة والمال قد ينفع وقد يضر واذا نفع فنفعه منقطع فمن استفاد علما ثم ضيعه أو تمكن من استفادته فأهمله فقد خسر خسرانا مبينا كما قال تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الى قوله لعلهم يتفكرون

(الباب السادس في الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة)

العلم ادراك الشيء بحقيقته وهو ضربان أحدهما حصول صور المعلومات في النفس والثاني حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود أو نفي شيء عنه هو غير موجود له نحو الحكم على زيد بأنه خارج أو ليس طائرا فالاول هو الذي قد يسمى في الشرع وفي كلام الحكماء العقل المستفاد وفي النحو المعرفة ويتعدى الى مفعول واحد والثاني هو الذي يسمي العلم ويتعدى الى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث ان القصد الى نسبة

علمت زيدا منطلقا اثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد واعلم أن العقل والعلم بقياس أحدهما على الآخر على ثلاثة أوجه أحدها عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزى والثاني علم ليس بعقل وهو المتعدى الى مفعولين والثالث عقل هو علم وعلم هو عقل وهو العقل المستفاد و العلم الذى يقال له المعرفة ولم يصح أن يعدى العقل الى مفعولين فيقال عقلت زيدا منطلقا كما يقال في علمت لكون العقل موضوعا للعلم البسيط دون المركب وسمى عقلا من حيث انه مانع لصاحبه أن تقع أفعاله على غير نظام وسمى علما من حيث انه علامة على الشئ وهذا اذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية وأما الفرق بين العلم البسيط اعنى المتعدى الى مفعول واحد وبين المعرفة وأن المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وان لم يدرك ذاته والعلم لايكاد يقال الا فيما يدرك ذاته ولهذا يقال فلان يعرف الله تعالى ولا يقال يعلم الله عز وجل لما كانت معرفته يقال ليست الا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته وأيضا فالمعرفة تقال فيما لا يعرف الا كونه موجودا فقط والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال الله تعالى عالم بكذا ولا يقال عارف به لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر وأيضا فالمعرفة تقال فيما يتوصل اليه بتفكر وتدبر والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره ويضاد العرفان الانكار والعلم والجهل وأما الدراية فالمعرفة المدركة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمة واجالة الخاطر واستعمال الروية وأصله من دريت الصيد والدرية تقال لما يتعلم عليه الطعن وللناقة يستتر بها الصائد ليأنس الصيد بها فيرمى من ورائها والمدرى يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ولا يصح أن يوصف بذلك البارى تعالى لان معنى الحيل لا يصح عليه ولم يرد بذلك سمع فيتبع وقول الشاعر

* لاهم لاأدرى وأنت الدارى * من تعجرف الاعراب الاجلاف

وأما الحكمة فاسم لكل علم حسن وعمل صالح وهو بالعلم العملى أخص منه بالعلم النظرى وفي العمل أكثر استعمالا منه في العلم وان كان العمل لا يكون

محكما من دون العالم به ومنها قيل أحكم العمل احكاما وحكم بكذا حكما والحكمة من الله تعالى عز وجل اظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر وقد حدت الحكمة بالفاظ مختلفة على انظرات مختلفة فقيل هي معرفة الاشياء الموجودة بحقائقها ويعنى كليات الاشياء فأما جزئياتها فلا سبيل للبشر الى الاحاطة بها وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم وقيل هي امانة الشهوات على مايجب وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية المراد من الانسان وقيل هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر وذلك أن يجتهد أن ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم وجوده عن البخل وحلمه عن السفه وبنحو هذا العلم يقرب العبد من خالقه سبحانه في الدنيا ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه كنسبة الاعضاء الى البدن في كونها أبعاضا له ومن وجه كنسبة المرؤسين الى الرئيس في كونها مستولية عليها ومن وجه كنسبة الاولاد الى الام في كونها مولدة لها وهى فى تعارف الشرع اسم للعلوم العقلية أى المدركة بالعقل وقد أفرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب فجعل الكتاب رسما لما لايدرك الا من جهة النبوات والحكمة اسما يدرك من جهة العقل وجعلا منزلين وان كان انزالهما من الله تعالى قد يكونان مختلفين وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الآخر فقد قيل لولا الكتاب لاصبح العقل حائرا ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب وقد قيل الكتاب بمنزلة اليد والعقل بمنزلة الميزان ولا تعرف المقادير الا بهما وكذلك عبر عن الحكمة بالميزان في قوله تعالى وأنزل الكتاب بالحق والميزان ولا يبلغ الحكمة الا أحد رجلين اما مهذب فى فهمه مؤمن فى فعله ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر واما الهى يصطفيه الله تعالى فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض الهى ويلقي اليه مقاليد جوده فيبلغه ذروة السعادة به وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

﴿ الباب السابع فى توابع العقل ﴾

العقل المشرق في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة وقد

تقدم ذكرهن ويحصل عنه أيضا الذكاء والذهن والفهم والفطانة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخبر واصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأى والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة فاما الذكاء فالمضاء في الامر وسرعة القطع بالحق وأصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة يدرك ذبحها بحدة السكين وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء ولكن لما كان أكثر مايوجد ذلك فيمن تمت سنه صار يعبر عنه عن تمام السن ومنه قيل جرى المذكيات غلاب وأما الذهن فقريب من الذكاء لكن يقال في ادراك ماوقع فيه التنازع وأما الفطانة فسرعة ادراك مايقصد اشكاله ولهذا يكثر فى استنباط الاحاجى والرموز وأما الفهم فتقدمة للعقل فمن لايعرف معنى الشئ فهما لم يتحققه عقلا وقد يسمى الفهم عقلا وان كانت مرتبته دون مرتبة العقل فقوة الفهم أن يدرك الاشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ومعنى ذلك أن العقل يعترف أن العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم يبين فيميز كل واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم وقد يوصف بالفهم من لايوصف بالعقل كالحاذق فى لعب الشطرنج وكل من يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم وأما الخاطر فحركة الفهم نحو الشئ يقال خطر الشئ ببالى ولم يقل خطر بالى بشئ فيجوز أن يكون ذلك من المقلوب كقولهم عيش ناصب وقد قيل في قولهم عقلت الشئ وأحسست أنهما أيضا من المقلوب فالشئ هو المؤثر في الحاسة والعقل لاهما فيه وأما الوهم فانقياد النفس لقبول أثر مايرد عليها من قولهم جمل وهم وطريق وهم والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال فيما لاتقبله النفس والوهم لايقال الا فيما تقبله النفس وأما الخيال فنحو الوهم لكن لايقال الا فيما له اعتبار بما يكون من جهة الحاسة وفيما له صورة ما ومنه سمى الطيف الوارد من جهة المحبوب خيالا والخيال تدية ل لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة والطيف لايقال الا فيما يكون حال النوم ولهذا يذهب الى الخيال لما كان ذلك من مجانبه قال الشاعر

ثم فما زارك الخيال ولكنك بالفكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة فمعرفة ثاقبة تجيء بلا فكر ولا قصد فالبديهة في المعرفة كالبديع في الفعل وأما الروية فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من روى وأما الكيس فهو القدرة على وجود استنباط ما هو أصلح في بلوغ الخير ولهذا قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت من حيث انه لا خير يصل اليه الانسان أفضل مما بعد الموت وقول العرب أكيس من قشه لتصورها صورة الكيس لأنها ذات كيس في الحقيقة وكاس في مشيته أي أظهر الكيس برفع احدى رجليه وتسميتهم الغادر كيسان اما على طريق المجاز أو تنبيها على ان الغادر بعد ذلك كيسا أولا وكيسان في الاصل اسم لغادر ويسمى كل غادر كيسان كتسميتهم كل حداد هالكية وأما الخبر فالمعرفة المتوصل اليها من قولهم خبرته أي اصبت خبره وقيل هو من قولهم ناقة خبرة أي غزيرة فكان الخبر هو غزارة المعرفة ويجوز أن يكون قولهم ناقة خبرة أي المخبرة عن غزارتها كقولهم ناقة تاجرة وأما الظن فاصابة المطلوب بضرب من الامارة ولما كانت الامارات مترددة بين يقين وشك فتقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يفسر أهل اللغة بها فمتى رؤى الى طرف اليقين أقرب استعمل ان المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وقوله وظنوا أنه واقع بهم ومتى رؤى الى طرف الشك أقرب استعمل معه ان التي للمعدومين من الفعل نحو ظننت أن يخرج وان خرجت وانما استعمل الظن بمعنى العلم في قوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم لامرين أحدهما تنبيه ان علم أكثر الناس في الدنيا بالاضافة الى علمه به في الآخرة كالظن في جنب العلم والثاني أن العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل الا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا والظن متى كان عن أمارة قوية فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد ذم به كما قال تعالى ان بعض الظن اثم وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله

وربما يقال هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الانسان وأحواله وقد نبه الله تعالى على صدقها قوله ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعرفهم بسيماهم وقوله ولتعرفنهم في لحن القول ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف وذلك ضربان ضرب يحصل للانسان عن خاطر لايعرف سببه وذلك ضرب من الالهام بل ضرب من الوحي واياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمن ينظر بنور الله وهو الذى يسمى صاحبه المروع والمحدث وقال عليه الصلاة والسلام ان يكن في هذه الامة محدث فهو عمر وقيل فى قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب الآية انما كان وحيا بالقائه فى الروح وذلك للانبياء كما قال عز وجل نزل به الروح الامين على قلبك وقد يكون بالهام في حال اليقظة وقد يكون في حال المنام ولاجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام الرؤية الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة والضرب الثانى من الفراسة يكون بصناعة متعلمة وهي معرفة مابين الالوان والاشكال وما بين الامزجة والاخلاق والافعال الطبيعية ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة وقد عمل فى ذلك كتب من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ماضمنوه والفراسة ضرب من الظن * وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال الظن بتقلب القلب والفراسة بنور الرب ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى ونفخت فيه من روحي كان ممن وصفه بقوله أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه وكان ذلك النور شاهدا أصاب فيما حكم به ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام فى المتلاعنين ان أمرهما بين لولا حكم الله ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن وقال اذ يريكهم الله في منامك الآية وقال في قصة ابراهيم يابني اني أرى فى المنام أنى أذبحك وقوله ياأبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والرؤيا هى فعل النفس الناطقة ولولم يكن لها

حقيقة لم يكن لايجاد هذه القوة في الانسان فائدة والله تعالى يتعالى عن الباطل وهى ضربان ضرب وهو الاكثر أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموج لايقبل صورة وضرب وهو الاقل صحيح وذلك قسمان قسم لايحتاج الى تأويل ولذلك يحتاج المعبر الى مهارة يفرق بين الاضغاث وبين غيرها وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس اذا كان فيهم من لاتصح له رؤيا وفيهم من تصح رؤياه ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تاتى اليه في المنام الاشياء العظيمة الخطيرة ومنهم من لا يرشح له ذلك ولهذا قال اليونانيون يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام وذلك لان له حظا من النبوة وقد قال عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهذا العلم يحتاج الى مناسبة بين متحريه وبينه فرب حكيم لايرزق حذقا فيه ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة وأما الزكانة فهو ضرب من الفراسة وهي معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق وهى ضربان أحدهما بتتبع أثر الاقدام والاستدلال به على السالكين والثانى الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على نسبته وخص بالقيافة من العرب بنو مدلج وقيل ان ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم وهي محكوم بها في الشرع وقال بعض الحكماء خص الله بذلك العرب ليكون سببا لارتداع نسائهم عما يورث ثقب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة النبوية ولاجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال تعالى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا أى ليعرف بعضكم بعضا بمعرفة أصله والكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية وكان ذلك فى العرب كثيرا وآخر من وجد وروي عنه الاخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب وقيل كان وجود ذلك في العرب أحد أسباب معجزات النبى صلى الله عليه وسلم لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ونزع ذلك عنهم بعد النبوة حتى روى لا كهانة بعد النبوة

وقال عليه الصلاة والسلام من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما أتى به فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنه قد رفع ومما يجرى مجراهما التطير وهو تشاؤم الانسان بشئ يقع تحت المناظر والمسامع مما تفر منه النفس مما ليس بطبيعى فأما نفارها مما هو طبيعى فى الانسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا واشتقاقه من الطير وأصله في زجر الطير وماسواه ملحق به قال

وما أنا ممن يزجر الطير حوله * أصاح غراب أم تعرض طائر

ثم كثر فى غيره حتى قال تعالى حكاية قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله أى السبب الذي يسعدكم أو يشقيكم عند الله وقال تعالي وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا انما طائرهم عند الله وسمى عمل الانسان الذى يعاقب عليه طائرا فقال تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه والنظر اجالة الخاطر نحو المرئى لادراك البصيرة اياه فللقلب عين كما أن للبدن عينا فمن صح عين قلبه وأعانه نور الله اطلع على حقائق الاشياء وأدرك العالم العلوى وهو في الدنيا فيرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولكون الاطلاع عليه قال أمير المؤمنين لو كشف الغطاء ماازددت يقيناوالرأى اجالة الخاطر في رؤية مايريده وقد يقال للقضية التى تثبت عن الرأي رأى والرأي للفكرة كالآلة للصانع التى لايستغنى عنها ويكون في الامور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ليكون من جملة الممكنات فيما يكون الينا فالطبيب لايجيل رأيه في نفس البرء بل يكون فى كيفية الوصول اليه ويحتاج الرأى الى أربعة أشياء اثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير أحدهما أن يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام تفكروا في لااله الا الله ولا تفكروا فى الله قال تعالى أولم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السموات والارض وقال تعالى يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة فقال الفكرة أن تجعل الغائب حاضرا والعبرة أن تجعل الحاضر غائبا وأما الذكر فوجود

الشيء في القلب أو في اللسان وذاك ان الشيء له أربع وجودات وجوده في ذاته قلب ووجوده في قلب الانسان ووجوده في لفظه ووجوده في كتابته فوجوده في ذاته سبب لوجوده في قلبه ووجوده في قلبه سبب لوجوده في نطقه ولوجوده في كتابته ويقال للوجودين أي الوجود في القلب والوجود في اللسان الذكر ولا اعتداد بذكر اللسان مالم يكن ذلك عن ذكر في القلب بل لايكون ذلك شيئا والذكر بالقلب ضربان أحدهما استعادة ماقد استثبته القلب فأمحى عنه نسيانا أو غفلة وهذا في الحقيقة هو التذكر والثاني ثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان ولا غفلة وذكر الله تعالى على نحو الاول غير مرتضى عند الاولياء وانما يحمد اذا كان على النحو الثاني واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالاجلال وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ولذلك قيل ذكر النعمة شكرها وتارة لافعاله الباهرة فيتولد منه العبر فحق المؤمن أن لا ينفك أبدا عن ذكره على أحد هذه الاوجه وعليه دل قوله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله الآية أي يذكر ربه في كل حال لان الانسان لاينفك من هذه الاوجه الثلاثة ✱ان قيل ماحقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الاعمال حتى قيل كل أمر لايبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر ✱قيل نبه بذلك على أن الامور كلها يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى وان كل أمر لايقصد به ذلك فهو ناقص وشرع ذكره باللسان ليكون ذلك سببا ليذكر فيتحري بفعله وجه الله تعالى ولا يعمل ماينافي رضاه وعلى ذلك قوله واذكر ربك اذا نسيت أي اذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذكر ربك تتذكر أنه مطلع عليك ولهذا قال عليه الصلاة والسلام اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وأما الحفظ فالمواظبة على مراعاة الشيء وقلة الغفلة عنه ومنه محافظة الحريم حتى قيل للغضب المقتضي لذلك حفيظة ويقال لثبات صورة الشيء في القلب الحفظ ويقال للقوة الحافظة أيضا حفظ وفلان جيد الحفظ أي القوة الحافظة وحفظ للنفس

من وجه جار مجرى الخزانة للملك يضع فيها الذخائر الى وقت الحاجة ومن وجه جار مجرى الكتاب الذى يكتب فيه الشئ فيرجع اليه ليتذكر به والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم فمنهم من قوى الله تعالى ذلك منه كما جعله الله لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام فلذلك كان له من الحفظ مايكفيه ويغنيه عن الاستعانة بالكتابة ولهذا قال الله تعالى لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فضمن أن يحفظ عليه بما جعله فيه من القوة الالهية وروى أنه لما نزل قوله تعالى وتعيها أذن واعية قال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله تعالى عنه سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك فلم يسمع بعد ذلك شيئا الا وعاه ومن الناس من يسرع اليه النسيان فما سمعه يكون كالحفظ يكتب على بسيط الماء* وأما البلاغة فاجادة اختيار الالفاظ والاصابة في تأليفها وقدرها ومعناها وتحرى الصدق فيها ولا يكون الكلام تام البلاغة مالم يجمع هذه المعانى فانه ان قبح اللفظ أو قبح التأليف أو كان أكثر مما يجب أو اقل مما يجب أولم يطابق اللفظ المعنى اما حقيقة أو استعارة رائقة أو كان المعنى محالا أو كذبا خرج الكلام بقدر مااختل منه عن باب البلاغة وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب أنظار مختلفة فقال بعضهم البلاغة هى الايجاز من غير عجز والاطناب فى غير خطل وقيل مافهمه العامة ورضيه الخاصة والى غير ذلك من الاوصاف * وأما الفصاحة فاشتقاقها من فصح اللبن أى خلص وهى الاصابة فى اللفظ فى الائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب موصوف بالفصاحة صدقا كان أو كذبا فالبلاغة ترجع الى اللفظ والمعنى والفصاحة الى اللفظ دون المعنى

﴿الباب الثامن فى ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية مايبلغه الانسان﴾

من شرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام العقل ثلاثة أجزاء جزء

معرفة الله وجزء طاعة الله وجزء الصبر عن معصية الله وقال عليه الصلاة والسلام الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة وثمرته العلم فمعرفة الله العامة مركوزة فى النفس وهي معرفة كل أحد انه مفعول وان له فاعلا فعله ونقله فالاحوال المختلفة وهي المشار اليها بقوله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها وبقوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وبقوله واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم الآية فهذا القدر من المعرفة في نفس كل واحد ويتنبه الغافل اذا نبه عليه فيعرفه ويعرف أن ماهو مساو لغيره فذلك الغير مساو له ومن هذا الوجه قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال فى مخاطبة المؤمنين والكافرين فاليه تجأرون وقال بعده ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون وانما معرفة الله المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب أن يثبت له من الصفات وما يجب أن ينفى عنه وهذه المعرفة هى التي دعت اليها الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال كلهم قولوا لااله الا الله ولم يدع أحد الى معرفة الله تعالى بل دعا الى توحيده وهذه المعرفة أعنى المكتسبة على ثلاثة أضرب ضرب لايكاد يدركه الا نبى وصديق وشهيد ومن داناهم وذلك المعرفة بالنور الالهى من حيث لايعتريه شك بوجه كما قال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وضرب يدرك بغلبة الظن أعني الظن الذى يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات واياه عنى بقوله ومايؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون فالاول يجرى مجرى ادراك الشئ من قريب ولهذا قال الله تعالى فى وصفهم ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد والثانى يجرى مجرى ادراك الشئ من بعيد وقد تعتريه شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون والثالث يجرى مجرى من يرى الشئ من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما

أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين ولاجل معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون وقال تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال تعالى قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه وقال عليه الصلاة والسلام من قال لااله الا الله مخلصا دخل الجنة وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ويعرف أثر الصنعة فيها وأنها محدثة وأن محدثها ليس اياها ولا مثالها بل هو الذى يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ولا يصح بقاؤها وارتفاعه وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله ولما كانت معرفة كله تصعب على الانسان الواحد القصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التى يعرفها منهم جعل تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه مثل ماهو موجود فى العالم الكبير ليجرى ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها فى الحضر الى السفر والليل والنهار فان نشط وتفرغ للتوسط فى العلم نظر فى العالم الكبير الكتاب الكبير الذى هو الملكوت ليغزر علمه ويتسع فهمه والا فله مقنع بالمختصر الذى معه ولهذا قال وفى أنفسكم أفلا تبصرون واشرف متأملى ذلك قال تعالى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وقال تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم الآية نبه بمدحهم حيث قالوا ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك أنهم عرفوا المقصود بخلقه وذلك آخر الابحاث لان الابحاث أربعة بحث عن وجود الشئ بهل هو وبحث عن جنسه بما هو وبحث عما يباين به غيره بأى شئ

هو وبحث عن الغرض بل هو وهذه الابحاث يبتنى بعضها على بعض لا يصح معرفة الثانى الا بمعرفة الاول ولا معرفة الرابع الا بمعرفة الثالث أو قولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا يقتضى انهم عرفوا الابحاث الاربعة والا شهدوا بما لم يتحققوا ومن شهد بما لم يتحقق كذب وان كان ماشهد على ماشهد به ألا ترى أن الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا انك لرسول الله مع أنه رسوله فدلت هذه الآية على أن البحث الذى يؤدى الى معرفة حقائق الموجودات التى تتضمن معرفة البارى تعالى هو من العلوم الشريفة بخلاف قول الصم البكم الذين لم يجعل الله لهم نورا حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك

﴿ الباب التاسع فى وجوب بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم ﴾

بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام الى الناس من الضرورات التى لا بدلهم منها وذلك أن جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الاخروية جزئياتها وكلياتها وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب وفى أي وقت يجب وكم يجب فاما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم بعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة كى اذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم ادراكهم ولهذا أزال عذرهم ببعثة الانبياء فقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

﴿ الباب العاشر فيما يعرف به صحة النبوة ﴾

لكل نبي آيتان احداهما عقلية يعرفها أولو البصائر من الشهداء والصالحين ومن يجرى مجراهم والثانية حسية يدركها أولو الابصار من العامة فالاولى ما لهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة وأنوارهم الساطعة التى لا تخفى على أولى البصائر كما قال الشاعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

لولم يكن فيه آيات مبينة * كانت بداهته تنبيك عن خبره

وذلك أن حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من أكرم تربة في العالم وحيث يكون عقل أربابها أوفر ولهذا لم يبعث نبي من الاطراف التي تضعف عقول أصحابها ولهذا قال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا الآية ونبه بقوله ذرية بعضها من بعض أنه جعل النبوة في بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه أشرف ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تملق من ابتلاها كما قال تعالى وألقيت عليك محبة مني وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه اذا كان مخصصا بنور العقل ولذلك قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الآية وهذه الاحوال اذا حصلت لايحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ولا يطلبها كما لا يطلب الانبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ولهذا لما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضى الله تعالى عنه الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال ما أحد عرضت عليه الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر فانه لم يتلعثم فيه وأما الآية الثانية فهي المعجزة التي تدركها الحواس من الانبياء وذلك يطلبه أحد رجلين اما ناقص عن الفرق بين الكلام الالهي وبين البشري وعن ادراك سائر ماتقدم ذكره فيحتاج مايدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك واما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآية

﴿ الباب الحادي عشر في كون العقل والرسل هاديين الخلق الى الحق ﴾

لله عز وجل رسولان الى خلائقه أحدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول ولا سبيل لاحد بالانتفاع بالرسول الظاهر مالم يتقدمه الانتفاع بالباطن فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كان تلزم الحجة ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل وأمر أن يفزع اليه في معرفة صحتها فالعقل قائد والدين مسدد ولولم يكن العقل لم يكن

الدين باقيا ولولم يكن الدين لاصبح العقل حائرا واجتماعهما كما قال تعالى نور على نور

(الباب الثاني عشر في تعذر ادراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية)

المعقولات تجرى مجرى الادوية الجالبة للصحة والشرعيات تجرى مجرى الاغذية الحافظة للصحة كما ان الجسم متى كان مريضا لم ينتفع بالاغذية بل ينضر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى في قلوبهم مرض لم ينتفع بسماع القرآن الذى هو موضوع الشرعيات بل صار ذلك ضارا له مضرة الغذاء للمريض وعلى هذا قوله تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا الآيتان * وأيضا فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات والاعتقاد فيه بمنزلة البذر ان خيرا وان شرا وكلام الله بمنزلة الماء اذا سقى الارض تختلف تأثيراته والى ذلك أشار تعالى بقوله وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب الآية وقال تعالى والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه الآية وأيضا فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخى على البصر وغشاء على القلب ووقر في الاذن والقرآن لايدرك حقائقه الا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وأزيل وقره ولهذا قال تعالى واذا قرأت القرآن جعلنا الى قوله وقرا * وأيضا فالمعقولات كالحياة التي بها الاسماع والابصار والقرآن كالمدرك بالبصر والسمع فكما ان من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح والسمع والبصر كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى فانك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء الى قوله الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون يعنى آيات السموات والارض وغيرهما

﴿ الباب الثالث عشر الايمان والاسلام والتقى والبر ﴾

الايمان هو الاذعان الى الحق على سبيل التصديق له واليقين ولهذا وصف الله الايمان والعلم بوصف واحد فقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال انما

المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ووجل القلب هو الخشية الحق على سبيل التصديق له باليقين هذا أصل الايمان لكن صار اسما لشريعة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم كالاسلام وصح أن يطلق على من يظهر ذلك وان لم يتخصص به اعتقاد او ثلج صدر كاليهودى فى أن أصله للمنسوب الى يهود والنصرانى في أن أصله للمنسوب الى نصران وهي قرية ثم صارا اسمين للمتخصصين بالشريعتين على أن اشتقاق الايمان لايمنع من أن يطلق على من يظهره فان المؤمن هو من صار ذا أمن وباظهار الشهادتين يأمن الانسان من أن يراق دمه أو يباح ماله فى الحكم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من قال لااله الاالله فقد عصم منا دمه وماله الا بحق وروى شهادة أن لااله الا الله كلمة جعلها الله بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها باسا كان له مالنا وعليه ماعلينا وحسابه على الله وذلك أنه لايطلع على القلوب الا الخالق تعالى والشريعة واردة أن يطلق اسم الايمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ولا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه مالم يظهر منه ماينافى الايمان بخلاف ماادعته المعتزلة بأنه لايصح اطلاق المؤمن على الانسان مالم يخبر فى الاصول الخمسة ويوقف منه على حقيقة مااعتقده والاسلام هو الاستسلام بما يدعو اليه الآمر من فعل مايقتضى فعله والملة القود الي الطاعة والدين الانقياد له وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة فيقال اعتبارا بفعل المدعو في انقياده الى الطاعة والملة من أمللت الكتاب فيقال اعتبارا بفعل الداعي اليها والشارع لها ولكونهما بالذات واحدا قال تعالى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا فأبدل الملة من الدين والدين أعم من الاسلام اذ هو يستعمل فى الحق والباطل والاسلام لايستعمل الا فى الحق ولهذا قال الله تعالي ان الدين عند الله الاسلام وقال ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه والاحسان تحرى الحسنة فى الايمان والاسلام ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما قيل له ماالاحسان قال أن تعبد الله كانك تراه والتقوى حمل النفس في وقاية من سخط الله تعالى وذلك بجمع

الهوى والبر السعة فى علم الحق وفعل الخير مشتق من البر أى السعة في الارض وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال عليه الصلاة والسلام البر ماسكنت اليه نفسك واطمأن به قلبك والاثم ماحاك فى نفسك وتردد في صدرك وقال البر طمأنينة والشر ريبة ومن البر الجود ولاجله جعل الجود من الايمان قال الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء والاخلاص أن يقصد الانسان بما يفعله وجه الله متعريا عن الالتفات الى غيره ولذلك قال الله تعالي وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ولقلة وجود ذلك قال الله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ولما كان الايمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل الجوارح والتقوي بقمع الهوى قال صلى الله عليه وسلم الاسلام علانية والايمان في القلب والتقوى ههنا وأشار الى صدره لما كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب ثم قال ولا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وقال الايمان قائد والعمل سائق والنفس حرون فان أبى قائدها لم يستقم سائقها وان أبى سائقها لم تطع قائدها ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة أعدت للمتقين وقال في موضع آخر وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا وقال بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه الآية

﴿ الباب الرابع عشر فى الايمان ﴾

اختلف في الايمان هل هو الاعتقاد المجرد أم الاعتقاد والعمل به واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم فمن قال هو الاعتقاد المجرد فنظر منه الى اشتقاق اللفظ والى انه قد فصل بينهما في عامة القرآن فعطف العمل عليه كقوله تعالي والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولان النبي صلى الله عليه وسلم فرق بينهما في خبر جبريل عليه السلام حين سأله عن الاسلام والايمان ففسر الاول بالاعمال والثاني

بالاعتقاد ومن قال هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه الصلاة والسلام الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان وكذلك اختلف أهل يكون فى الايمان زيادة ونقصان فقال قوم يكون ذلك فيه لقوله تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقوله تعالي واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وقوله ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ومن خالفهم يقول الشئ انما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبة ضده عليه قالوا والايمان لايحصل الا بعد الغلبة على الكفر فلا يضامه حتى يقال انه يغلب عليه وكذلك اختلفوا في جواز اطلاق اسم الايمان على من أقر بالشهادتين فقال بعضهم يجوز ذلك نظرا منه الى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الجارية التى سألها عن الله فأشارت الى السماء وعن النبوة فأشارت اليه صلى الله عليه وسلم فقال اعتقها فانها مؤمنة ولان الايمان ليس بذى منزلة واحدة ومن قال لايجوز فنظر منه الى قوله تعالي انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم لما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من قال أنا مؤمن فهو فاسق ومن قال أنا عالم فهو جاهل *ان قيل مامعنى قوله عليه الصلاة والسلام لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن *قيل الايمان ذو منازل كما وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله انما يكون الانسان مؤمنا بلا مثنوية اذا استوعب منازله فتعرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر ومتى انخرم بعض ذلك خرج عما هو كقولهم عشرة في كونه اسما لعدد مخصوص اذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه ومن شرط الايمان الكامل أن لايكون زانيا ولا سارقا

﴿ الباب الخامس عشر في أنواع الجهل ﴾

الانسان في الجهل على أربعة منازل الاول من لا يعتقد اعتقاد الا صالحا ولا طالحا وأمره في ارشاده سهل اذا كان طيعا فانه كلوح أبيض لم يشغله نقش وكارض بيضاء لم يلق فيها بذر ويقال له باعتبار العلم النظرى غفل وباعتبار العلم العملى غمر ويقال له سليم الصدر والثانى معتقد لرأى فاسد لكنه لم ينشأ عليه

ولم يترتب به فاستنزاله عنه سهل وان كان أصعب من الاول فانه كاوح يحتاج الى حذف وكتابة وكارض تحتاج الى قلع وزراعة ويقال له غاو وضال والثالث معتقد لرأى فاسد قدر أنه قد تراءت له صحته فركن اليه بجهله وضعف بصيرته فهومن وصفه الله تعالى بقوله ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون لاسبيل الى تنبهه وتهذيبه كما قيل لحكيم يعظ شيخا جاهلا متصنع فقال اغسل مسحا ان ابيض والرابع معتقد اعتقادا فاسدا عرف فساده وتمكن من معرفته لكنه اكتسب دنية لرأسه وكرسيا لرياسته فهو محامى عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ويذم أهل العلم ليجر الى نفسه الخلق ويقال له فاسق ومنافق وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر فى نحو قوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم وقوله تعالى فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون فنبه الله تعالى انهم ينكرون مايقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه لكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال ابليس فيما دعي اليه من السجود لآدم عليه السلام والجنون هو عارض يغمر العقل والحمق قلة التنبه لطريق الحق وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضا وقد عظم الحمق مالم يعظم الجنون وقد قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

وقد حكى حكاية وهي ان لم تصح فنافع ذكرها وهي ان عيسى عليه السلام أتى بأحمق ليداويه فقال أعيانى مداواة الاحمق ولم يعيني مداواة الاكمه والابرص ومما يفرق بينهما ان المجنون يكون غرضه الذى يريده ويرومه فاسدا وسلوكه اليه خطأ ولهذا يعرف المجنون اذا رؤي بارادته قبل سلوكه الى مراده والاحمق لايعرف بمراده بل بسلوكه ولهذا متى صح ارادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرا من فلتات صوابه والاحمق لايكاد يصيب فى شئ من مسالكه وأما البله فقلة التنبه فى الامور ويضاده الكيس وقد تقدم ان البله والكيس يقالان تارة باعتبار الامور الاخروية فمن كان في أحدهما كيسا كان فى الاخرى

ابله وقال أبوبكر رضي الله تعالى عنه أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور وأما الرقيع فالذى يلصق بقلبه كل محال كانه لصق بذلك والارعن الذى يأتي بما يخرج عن الصواب تشبها بر عن الجبل وهو الحيد منه والاحمق الناقص العقل من قولهم انحمقت السوق أى نقصت و لغمارة قلة التجربة في الامور العملية مع تخيل سليم وقد يكون الانسان غمرا فى شئ غير غمر فى غيره والحذق يقال في الجاهل بالامور العملية وذلك بأن يفعل أكثر مما يجب أو أقل على غير النظام المحمود وفساد كل عمل لا يعد وهذه الوجوه الثلاثة ويضاده الحذق والبغي ارتكاب الهوى وترك مايقتضيه الحق والعقل والضلال أن يقصد لاعتقاد الحق أوقول الصدق أو فعل الجميل فظن لسوء تصور فيما كان باطلا انه حق فاعتقده أوفيما كان كذبا انه صدق فقاله أو فيما كان قبيحا انه جميل ففعله والجهل عام فى ذلك كله والخب استعمال الدهاء فى امور الدنيوية صغيرها وكبيرها والجربزة مثله لكن يقال فيما يقتضى الامور الدينية والدهاء لكن يقال في الامور العظام اذا درك غاياتها ولهذا قالوا الدهاة فى الاسلام أربعة فذكروا المتوجهين في الحالات الدنيوية الذين بلغوا بها أمورا كبارا ومن الجهل الكفر وهو عناد الانسان للحق على سبيل التكذيب له لا بيقين وأصله من ستر ماجعل الله للانسان بفطرته وصبغته من المعارف بما يستعمله ويتحراه من عناد الحق ومن ترك النظر والاخلال تزكية النفس المعنى بقوله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها

﴿ الباب السادس عشر فى قول النبي صلى الله عليه وسلم
الايمان بضع وسبعون بابا ﴾

ثبت الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الايمان بضع وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها علم أن الايمان الواجب هو اثنان وسبعون درجة لا يصح أن يكون أكثر منها ولا أقل ولا يوجد من الايمان ماهو خارج عنها

يوجبه صادق وانه عليه الصلاة والسلام فيما يورده كما وصفه عز وجل بقوله وما ينطق عن الهوى ان هو الاوحى يوحى علمه شديد القوى وبيان ذلك ان الايمان شيآن اعتقاد وأعمال ولاعتقاد على ثلاث منازل يقين لايعتريه شبهة كما قال تعالى الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا * وظنّ وهو ماكان عن أمارة قوية وأعني بالظن ههنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون * وتقليدى وذلك مايعتقد عن رأى أهل البصائر كما وصفه تعالى بقوله ولو ردوه الي الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، الاعمال ثلاثة عمارة الارض المعنية بقوله تعالى واستعمركم فيها وعبادته المعنيه بقوله وما خلقت الجن والانس الاليعبدون وخلافته المعنيه بقوله ، يستخلفكم في الارض وقوله انى جاعل في الارض خليفة وذلك بتحرى مكارم الشريعة فهذه ستة وكل واحد من هذه اما يتحراه الانسان عن رغبة أورهبة كما قال ويدعوننا رغبا ورهبا أو يتحراه عن اخلاص بطوع واختصاص نفس كما قال تعالى وأخلصوا دينهم لله فهذه اثنتا عشرة منزلة وكل واحدة من هذه اما أن يكون الانسان فى مبدئه أو في وسطه أو في منتهاه لان كل فضيلة ورذيلة لاينفك الانسان فيه من هذه الاحوال الثلاث ولهذا قال الله تعالى فى الفضيلة ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية وقال فى الرذيلة ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا الآية فجعل منازل الايمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة بستة وثلاثين وكل واحد من هذه الستة والثلاثين اما أن يتوصل اليه من طريق الاجتباء أو من طريق الهداية فالاجتباء للانبياء ومن يليهم من الاولياء وهو ايثار الله تعالى بعض عباده بفيض الهى تأتيهم الحكمة بلا سعى منهم وعلى هذا قوله تعالى وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث وقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء والاهتداء للعلماء والحكماء وهو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له

منها بقدر مايتحمل من المشقة واليها عنى بقوله تعالى الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب وقوله وممن هدينا واجتبينا فهذه اثنتان وسبعون درجة لايمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها وكل ما ورد من الاخبار فليس بخارج منها والله الموفق فمما هو من جملة العبادة قوله عليه الصلاة والسلام الوضوء شطر الايمان وقوله الايمان الصلاة من فرغ لها قلبه وأقامها بحدودها ووقتها وسننها ومما هو من مكارم الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام الحياء من الايمان وقال لايجتمع ايمان وشح في قلب عبد وقوله ثلاث من جمعهن جمع الايمان الانفاق من الاقتار وانصاف المؤمن من نفسه وبذل السلام وقوله عليه الصلاة والسلام أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وقوله لاناس من أصحابه ما ايمانكم قالوا الصبر على البلاء ونشكر في الرخاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة

﴿ الباب السابع عشر كون العلم مركوزا في نفوس الناس ﴾

الانسان معدن الحكمة والعلوم وهي مركوزة فيها مجبولة بالفطرة لها وبالقوة كالنار في الحجر والنخل في النواة والذهب في الحجارة وكالماء تحت الارض لكن لايوصل اليه الا بدلو ورشاء ومنه ما هو كامن يحتاج في استنباطه الي حفر وتعب شديد فان عني به أدرك والا بقي غير منتفع به كذا العلم في نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشري وذلك كحال الانبياء فانهم تفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الاعلى ومنه مايوجد بادنى تعلم ومنه ما يصعب وجوده كحال عوام الناس ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال تعالي واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريانهم وأشهدهم الآية فاقروا ان الله هو الذى يربيهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية فهو اقرار نفوسهم كلهم بما ركز في عقولهم فأما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم وكذا المعني بقوله ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله أي لئن اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك وعلى ذلك قوله فأقم وجهك للدين حنيفا الآية فبين ان الدين

الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه أى خلقهم عالمين به فان المعاندين وان قصدوا تبديله وازالة الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وقال فيمن قويت في قلوبهم الفطرة والصبغة أولئك كتب في قلوبهم الايمان فسمى ذلك كتابا وقال النبي صلي الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وهذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ولذلك قال في غير موضع لعلهم يذكرون وليذكر أولوا الالباب وضرب أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ماحملوا كما قال واذا ذكروا لايذكرون فهم فى الجهالة يتسكعون وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به وقال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أى يسرنا القرآن ليكون سببا أن تتوصلوا به الى تذكر ما سبق من عهدكم والتذكر على أضرب الاول أن يكون باللسان عن صورة ما حصل في القلب الثانى أن يكون في القلب كصورة حصلت عن شئ معهود اما من البصر أومن البصيرة أوغيره من المشاعر والثالث أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة في الانسان وهو المشار اليه بهذه الآيات ومن هذا الوجه قال الحكماء التعليم ليس يجلب الانسان شيأ من خارج في الحقيقة وانما يكشف الغطاء عما حصل في النفس فيبرزه بخلافه فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الارض وكالصيقل الذى يبرز الجلاء في المرآة وهذا ظاهر لمن ظاهر بعين عقله

﴿ الباب الثامن عشر حصر أنواع المعلومات ﴾

أنواع المعلوم ثلاثة أنواع نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ أما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الالفاظ بوسائط المعانى وذلك ضربان أحدهما حكم ذوات الالفاظ وهو علم اللغة والثاني حكم لواحق الالفاظ وذلك شيآن شئ يشترك فيه النظم والنثر وهو علم

الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشيء يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافي وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة وعلم البلاغة وعلم الشعر وأما المتعلق بالمعني فضربان علمي وعملي فالعلمي ماقصد به أن يعلم فقط وهو معرفة البارى تعالى ومعرفة النبوة ومعرفة الملائكة ومعرفة يوم القيامة ومعرفة العقل ومعرفة النفس ومعرفة مبادى الامور ومعرفة الاركان ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين والنجوم ومعرفة طبائع النبات ويقال له علم الفلاحة ومعرفة طبائع الحيوانات ومعرفة طبائع الانسان ويقال له علم الطب وأما العملي فهو ما يجب أن يعلم ثم يعمل به فيسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة وتارة أحكام الشرع ومكارمه وذلك حكم العبادات وحكم المعاملات وحكم المطاعم وحكم المناكح وحكم المزاجر والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب الاول المستفاد من بديهة العقل ومصادمة الحس وذلك لكل من لم يكن مفقود الآلة وان اختلفت أحوالهم فى ذلك الثانى المستفاد من جهة النظر اما بمقدمات عقلية أو بمقدمات محسوسة الثالث المستفاد من خبر الناس اما بسماع من أفواههم أو بالقراءة في كتبهم ولا يكون الخبر علما الا ما كانت المظنة عن مخبريه مرتفعة والرابع ما كان عن الوحى اما بلسان ملك مرئى كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك واما بسماع كلام من غير مصادفة عين كما سمع موسى عليه السلام واما بالقاء في الروع في اليقظة كما قال عليه الصلاة والسلام ان يكن فى هذه الامة محدث فهو عمر واما بالمنام وهو المعنى بقوله الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وينطوى على ذلك قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء

﴿الباب التاسع عشر ما يعرف به فضيلة العلوم﴾

فضيلة العلم تعرف بشيئين أحدها بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته وذلك

كشرف علم الدين على علم الطب فان ثمرة علم الدين الوصول الي الحياة الابدية وثمرة علم الطب الوصول الي الحياة الدنيوية وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحى والطب أكثر أصوله من التجارب ورب علم يوفي على غيره بأخذ الوجهين وذلك الغير يوفي عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فللطب شرف الثمرة اذ هو يفيد صحة البدن وللحساب وثاقة دلالة اذا كان العلم به ضروريا غير مفتقر الى التجربة وليس يجب أن يحكم بفساد علم لخطا وقع من أربابه كصنيع العامة اذا وجدوا من أخطأ في مسئلة حكموا على صناعته بالفساد واذا رأو من أصاب في مسئلة حكموا على صناعته بالصحة وذلك عادتهم في الطب والتنجيم فيحكمون على الصناعة بالصنائع خلاف ما قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه يا حار الحق ملبوس عليك الحق لايعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله وليس يدرون أن الصناعة مبنية على شيء روحاني والمتعاطي لها بيا شرها بجسم وطبع يضامها العجز خليق بوقوع الخطأ منه ثم الانسان قد ينتحل مالا يحسنه ويتدرع بدعوى مالم تجز آلته ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعي لصناعته ماليس من طبعها ككثير من المنجمين المدعين ما ليس في التنجيم فاذا لا عبرة بدعاوى الناس

﴿ الباب العشرون في استحسان معرفة أنواع العلوم ﴾

حق الانسان أن لايترك شيأ من العلوم أمكنه النظر فيه واتسع العمر له الا ويخبر بشمه عرفه وبذوقه طيبه ثم ان ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فبها ونعمت والالم يبصر لجهله بمحله ولغباوته عن منفعته الا معاديا له بطبعه

فمن يك ذا فم مرّ مريض ۞ يجد مرا به الماء الزلالا

فمن جهل شيأ عاداه والناس أعداء ما جهلوا بل قال الله تعالى واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ۞ وحكى عن بعض الفضلاء أنه رؤى بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة فقيل له في ذلك فقال وجدته علما نافعا فكرهت أن أكون لجهلي به معاديا له ولا ينبغى للعاقل أن يستهين بشيء من

العلوم بل يجعل لكل حظه الذى يستحقه ومنزله الذى يستوجبه ويشكر من هـداه افهمه وصار سببا لعلمه فقد حكى عن بعض الحكماء أنه قال يجب أن نشكر آباءنا الذين ولدوا لنا الشكوك اذ كانوا سببا لما حرك خواطرنا الطلب العلم فضلا عن شكر من أفادنا طرفا من العلم ولولا امكان فكر من تقدمنا لاصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلا عن مصالح أخراهم فمن تأمل حكمة الله تعالى فى أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركبا على وجه يتوافى حداهما عن نمط واحد للقرض أكثر تعظيم الله تعالى وشكره ويقول سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين

﴿ الباب الحادي والعشرون فى معاداة بعض الناس لبعض العلوم ﴾

العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو فمن منازله معرفته التى عليها مبنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال هم درجات عند الله وقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته فى حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثوابا على قدر عامه لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته وشره في مكسبه وطالب لرياسته وجاهل معجب بنفسه يصير لا جل تنفيق ساعته صارفا عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم وعائبا له فلهذا ترى كثيرا ممن حصل فى منزلة من منازل العلوم دون الغاية عائبا لما فوقه وصارفا عنه من رامه فان قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس عنه فعل فهو ممن قال الله تعالى فيهم وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون وما أرى من هذا صنيعه الا من وصفهم الله تعالى بقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة الآية وذكر الترمذي هـذه المسئلة فقال اذا كان من يقطع على

الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ماذكر الله تعالي بقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية فما الظن بما يستحق من العقوبة من يقطع الطريق على المسافر الى الله تعالى وقد حكى عن عيسى عليه السلام أنه قال ياعلماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها وتدعوا غيركم يدخلها مثلكم كمثل الدفلى زهره حسن وثمره يقتل من أكله

﴿ الباب الثاني والعشرون فى الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه ﴾

من كان قصده الوصول الى جوار الله فليتوجه نحوه كما قال تعالى ففروا الي الله وكما أشار صلى الله عليه وسلم بقوله سافروا تغنموا فحقه أن يجعل العلوم كزاد موضوع في منازل السفر فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة فلا يعرج على تقيضه واستفراغ مافيه فيقضى الانسان نوعا واحدامن العلوم على الاستقصاء يستفرغ فيه عمرا بل أعمارا ثم لايدرك قعره ولا يسبر غوره ثم نبهنا الباري تعالى علي أن نفعل ذلك بقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الآية وقال الامام على كرم الله وجهه العلم كثير فخذوا من كل شئ أحسنه وقال الشاعر

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم * في العين فضل ولكن ناظر العين

وقيل * حل طبعك بالعيون والفقر * فالشجرة لايشينها قلة الحمل اذا كانت ثمرتها نافعة ويجب أن لايخوض الانسان في فن حتى يتناول من الفن الذى قبله على الترتيب بلغته ويقضى منه حاجته فازدحام العلم فى السمع مضلة للفهم وعليه قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أى لايجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا ويجب أن يقدم الاهم فالاهم من غير اخلال بالترتيب وكثير من الناس ثكلوا الوصول بتركهم الاصول وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به الى مافوقه حتى يبلغ به النهاية والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والمصدوقة فالعلوم كلها خدم لها وهى حرة وروى

أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء في بعض مساجدهم وفي يد أحدهما رقعة فيها ان أحسنت كل شئ فلا تظنن انك أحسنت شيئا حتى تعرف الله وتعلم أنه مسبب الاسباب وموجد الاشياء وفي يد الآخر كنت قبل أن عرفت الله تعالى أشرب وأظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب بل قد قال الله تعالى ماقد أشار به الى ماهو أبلغ من حكمة كل حكيم قل الله ثم ذرهم أى اعرفه حق المعرفة ولم يقصد بذلك أن يقول ذلك قولا باللسان اللحمي فذلك قليل الغناء مالم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قال عليه الصلاة والسلام من قال لااله الا الله مخلصا دخل الجنة ويجب أن لايتعرى علمه عن مراعاة العمل فيه بتبلغ ألا ترى انه ماخلى ذكر الايمان في عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والى ذلك أشار بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقيل كثرة العلم من غير العمل مادة الذنوب وقيل العلم أس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل وقال رجل لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل ياهذا اذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل وقال الشاعر مايصلح أن يكون اشارة الى هذا المعنى

فعلام ان لم أشف نفسا حرة * ياصاحبي أجيد حمل سلاحي

الباب الثالث والعشرون في أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته

كما أن للانسان في حال مقتنياته أربعة أحوال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار فيكون لما اكتسبه ويكون به غنيا عن المسئلة وحال انفاق فيصير به منتفعا وحال افادته غيره فيصير به سخيا كذا له أيضا في العلم أربعة أحوال حال استفادة وحال تسخير تحصيل وحال استبصار وحال تبصير وتعليم ومن أصاب مالا فانتفع به ونفع مستحقيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهى مضيئة والمسك الذى يطيب الناس وهو طيب وهذا أشرف المنازل ثم بعده من استفاد علما فاستبصر به فاما من أفاد علمه غيره ولم ينتفع هو به فكالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادمه وكالمسن يحد ولا يقطع وكالمغزل يكسو ولا يكتسي وكذبالة المصباح

تحرق نفسها وتضيء لغيرها ومن استفاد علما ولم ينتفع هو به ولا نفع غيره فانه

كالنخل يشرع شوكالا يذود به * عن حمله كف جان وهو منتهب

(الباب الرابع والعشرون فيما يجب على المتعلم أن يتحراه)

حق المترشح لتعلم الحقائق أن يراعي ثلاثة أحوال الاول أن يطهر نفسه من رديء الاخلاق لطهر الارض للبذر من خبائث النبات فقد تقدم أن الطاهر لا يسكن الا بيتا طاهرا وان الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب والثانى أن يقلل من الاشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية

فما صاحب التطواف يعمر منهلا * وربما اذا لم يخل ربعا ومنهلا

وقد قال الله تعالى ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه فينشفه الجو وتنشر به الارض فلا يقع به نفع و ذا جمع بلغ المزرع فانتفع به والثالث أن لايتكبر على معلمه ولا على العلم فالعلم خراب للمتعالي كالسيل خراب للمكان العالى ولهذا قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فان أعطيته كلك فانك من اعطائه اياك بعضه على خطر وكانما اياه عنى من قال

خدم العلى فخدمنه وهى التى * لاتخدم الاقوام مالم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كارض دمثة نالت مطرا غزيرا فتلقاه بالقبول لم ينتفع به فحقه أن يضرع له كما قال تعالى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أى لمن له بنفسه علم يستغنى به أو تذلل لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم وقال بعض العلماء فى قوله عليه الصلاة والسلام اليد العليا خير من اليد السفلى اشارة الي فضل المعلم على المتعلم وفى تبيين فضل المعلم حث للمتعلم كالانقياد له وكما أن حق المريض أن يكل الى الطبيب الناصح الذي وقف على دائه ليطالب الطبيب دواءه وغذاءه فانه ان تشهى لم يتشه الا مافيه داؤه ولم يختر مافيه شفاؤه

فمن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

كذا في حق المتعلم اذا وجد معلما ناصحا أن يأتمر له ولا يتأمر عليه ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه وكفى على ذلك تنبيها ماحكى الله عن العبد الصالح أنه قال لموسى عليه وعلى جميع الانبياء السلام حيث قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا فقال لا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فنهاه عن مراجعته وليس ذلك نهيا عما حث الله تعالى عليه فى قوله فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون وذلك لان النهى انما هو نهى عن نوع العلم الذى لم يبلغ منزلته بعد والحث انما هو عن سؤال تفاصيل ماخفي عليه من النوع الذى هو بصدد تعلمه وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغي الي الاختلافات المشككة والشبه الملتبسة مالم يتهذب في قوانين ماهو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيؤدى ذلك به الى الارتداد ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوى في الاسلام عن مخالطة الكفار فقال ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا وقال تعالى ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل الآية ولاجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الاهواء والبدع لئلا يغووهم فالعامى اذا خلا باهل البدع فكالشاة اذا خلت بالسبع وقال بعض الحكماء انما حرم الله تعالى في الابتداء لحم الخنزير لانه أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككونهم وهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى فحرام على المسلمين ذلك اذ هو معظم مأكولاتهم وعظم الامر فى تناوله ومسه ليتنزه المسلمون عن الاجتماع معهم فى المآكلة والانس وقال عليه الصلاة والسلام في المؤمن والكافر لاتتراءى ناراهما لذلك فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته اياهم فانه جار مجرى سلطان ذى أجناد وعدة وعتاد لايخاف عليه العدو حيثما توجه

ولهذا جوز له الاستماع للشبه بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجادلهم ويجاهدهم ويدافعهم فالعالم أفضل المجاهدين أجهاد جهادان جهاد بالبنان وجهاد بالبيان ولما تقدم سمى الله تعالي الحجة

سلطانا فى غير موضع من كتابه العزيز كقوله حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام انى آتيكم بسلطان مبين

﴿الباب الخامس والعشرون فيما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه﴾

حق المعلم أن يجرى متعلميه منه مجرى بنيه فانه في الحقيقة أشرف من الابوين كما قال الاسكندر وقد سئل منه أمعلمك أكرم عليك أم أبوك قال بل معلمي لانه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله انما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم فحق معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم اذ هو في ارشاد الناس خليقته فيشفق عليهم اشفاقه ويتحنن عليهم تحننه كما قال تعالى في وصفه عليه الصلاة والسلام حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم وأى عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لانسل له فيموت ذكره بموته ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجودا وان فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين العلماء باقون مابقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة وقال بعض الحكماء في قوله تعالى فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب انه سأله نسلا يورثه علمه لامن يورثه ماله فاعراض الدنيا أهون عند الانبياء من أن يشفقوا عليها وكذا قوله وانى خفت الموالى من ورائى أى خفت أن لايرعوا العلم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام العلماء ورثة الانبياء وكما ان حق أولاد الاب الواحد أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا كذلك من حق بنى العلم الواحد بل الدين الواحد أن يكونوا كذلك فاخوة الفضيلة فوق اخوة الولادة ولذلك قال تعالى انما المؤمنون اخوة وقال الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وحق العالم أن يصرف من يريد ارشاده من الرذيلة الي الفضيلة بلطف فى المقال وتعريض فى الخطاب والتعريض أبلغ من التصريح لوجوه أحدها ان النفس الفاضلة لميلها الى استنباط المعانى تميل الى التعريض شغفا باستخراج معناه بالفكر ولذلك قيل رب تعريض أبلغ من تصريح والثاني ان التعريض لاتنهتك به سجوف الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة

والثالث أن ليس للتصريح الا وجه واحد وللتعريض وجوه فمن هذا الوجه يكون أبلغ ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية للثواب والعقاب نحو قول الله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم الآية والرابع أن للتعريض عبارات مختلفة فيمكن ايراده على وجوه مختلفة والتصريح ليس له الا عبارة واحدة فلا يمكن ايراده الا على وجه واحد والخامس ان صريح النهي داع الى الاغراء ولذلك قيل اللوم اغراء وقال

دع اللوم ان اللوم يغري وانما * أراد صلاحا من يلوم فأفسدا .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه قالوا مانهينا عنه الا وفيه شيء وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء في نهي الله تعالى اياهما عن أكل الشجرة ومن حق المعلم مع من يفيده العلم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما علمه الله تعالى حيث قال قل لاأسألكم عليه أجرا فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده علما ثوابا لما يوليه وليعلم أن من باع علما بعرض دنيوي فقد ضاد الله تعالى في حكمه وذلك ان الله تعالى جعل المال خادما للطعام والملابس جعلها خادمة للبدن وجعل البدن خادما للنفس وجعل النفس خادما للعلم فالعلم مخدوم غير خادم والمال خادم غير مخدوم فمن جعل العلم ذريعة الى اكتساب المال فقد جعل ماهو مخدوم غير خادم خادما

﴿ الباب السادس والعشرون في وجوب منع الجبلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم ﴾

واجب على الحكيم العالم النحرير أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما قال انا معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم وأن يتصور ماقال أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه حيث قال لكميل بن زياد وأومأ بيده الى صدره فقال ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة بل لو أصبت لقنا غير مأمون عليها يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده وبحجته على كتابه أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له يقتدح الشك في

قلبه بأول عارض من شبهته وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله وقال عليه الصلاة والسلام ماأحد يحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان ذلك فتنة على بعضهم وقال عيسى عليه السلام لاتضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم انه ينفع وقيل تصفح طلاب حكمتك كما تتصفح خطاب حرمك وبه ألم أبو تمام

وما أنا بالغيران من دون جيرتي * اذا أنا لم أصبح غيورا على العلم

وقيل لبعض الحكماء مابالك لاتطلع أحدا على حكمة يطلبها منك فقال اقتداء بالبارى عز وجل حيث قال ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فبين أنه انما منعهم لما لم يكن فيهم خير وبين ان في اسماعهم ذلك مفسدة لهم وسأل جاهل حكيما عن مسألة من الحقائق فأعرض عنه ولم يجبه فقال له أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار فقال نعم سمعته فاترك اللجام هنا واذهب فاذا جاء من يستحق ذلك وكتمته فليلجمني به وقال بعض الحكماء في قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما أنه نبه على هذا المعنى وذلك انه لما منعنا من تمكين السفيه من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفاديا انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوى فلأن يمنع من تمكينه من حقائق العلوم الذي اذا تناوله السفيه أداه الى ضلال واضلال فهلاكه أحق وأولى شعر

اذ ماافتنى العلم ذو شرة * تضاعف ماذم من مخبره

وصادف من علمه قوة * يصول بها الشر في جوهره

وكما انه واجب على الحكام اذا وجدوا من السفهاء رشدا أن يرفعوا عنهم الحجز ويدفعوا اليهم أموالهم لقوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم فواجب على الحكماء اذا وجدوا من المسترشدين قبولا أن يدفعوا اليهم

العلوم بقدر استحقاقهم فالعلم قنية يتوصل بها الى الحياة الاخروية كما ان المال قنية يتوصل بها في المعاونة الى الحياة الدنيوية وباذل العلم لمن لا يستحق يستوجب عقوبة ومانعه من أهله يستوجب عقوبات ولذلك قال الله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقال ان الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ماياً كلون في بطونهم الا النار الآية فاذا ثبت ذلك وجب أن يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع فحسنت حاله أن لاينصرف عما هو بصدده فيؤدى ذلك الى انحلاله عن قيده ثم لايمكن أن يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذى بينه وبين الشرور ومن اشتغاله بعمارة الارض بين تجارة ومهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على مقدار مايحتاج اليه من هو في مرتبته في عبادة الله تعالى العامية وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا تولد له الشبه والشكوك فان اتفق اضراب بعضهم اما بانبعاث شبهة تولدت له أو ولدها ذو بدعة دفعت اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقه أن يختبر فان وجد ذا طبع للعلم موافق وفهم ثاقب وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم ووسع عليه بما يوجد من السبيل اليه وان وجد شريرا في طبعه أو ناقصا في فهمه منع أشد المنع فى اشتغاله بما لاسبيل له الى ادراكه فسدتان تعطله عما يعود بنفع الى العباد والبلاد واشتغاله بما يكثر فيه شبهة وليس فيه نفعه وكان بعض الامم المتقدمة اذا ترشح بعضهم ليخصص بمعرفة الحكم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبر فان لم يوجد خيرا في الخلق أو غير متهيئ للتعلم منع أشد المنع فان وجد خيرا ومتهيأ شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ومنع من الخروج الى أن يقيد بقيد فى دار الحكمة ومنع من الخروج الى أن يحصل له العلم أو يأتي عليه الموت ويزعمون ان من شرع فى حقائق العلوم ولم يبرع فيها تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالا مضلا فيعظم على الناس ضرره بهذا السبب وقيل نعوذ بالله من نصف متكلم

(الباب السابع والعشرون في وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة اهمال ذلك)

لاشئ أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم فمن الاخلال بها ينتشر الشر وتكثر الاشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك ان السواس أربعة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكماء وحكمهم على بواطن الخاصة والوعظة وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده فى عكس ذلك ولما تركت مراعاة المتصدى للحكمة والوعظ فترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فاحدثوا بجهلهم بدعا استغووا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم

فكل قرين الى شكله * كانس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقا منسدة ورفعوا بها ستورا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وكفروهم اغتصابا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطؤهم باخفافهم واظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام

(الباب الثامن والعشرون فى ذكر من يصلح لوعظ العامة)

لايصلح الحكيم الا لنقص الحكيم لالنقص العامى

* فلن ترى الشمس أبصار الخفافيش * وأيضا فبين الحكيم والعامى من تنافر طبعهما وتباين شكليهما من النفار قريب مما بين الماء والنار والليل والنهار وقيل لسلمة بن كهيل مالعلى رضى الله تعالى عنه رفضته العامة وله في كل خير ضرس قاطع فقال لان ضوء عيونهم قصرعن نوره والناس الى أشكالهم أميل وبهذا النظر قال جاهل لحكيم انى أحبك فقال نميت الى ضى قيل له ولم قال ان صدق فليس ميله الالنقيصة بدت من نفسى لنفسه فآنست به ولهذا قال الشاعر

لقد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

فحق الواعظ أن تكون له مناسبة الى الحكماء يقدر بها على الاقتباس منهم والاستفادة عنهم ومناسبة الى الدهاة يقدرون بها على الاخذ منه كمناسبة الوزير للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك وتواضع السوقة ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم فكالنبي الذي جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ من الملك ويمكن البشر أن يأخذوا منه ومنه قوله ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا تنبيها انه ليس في وسعكم التلقي عن الملك مالم يتجسم فيصير في صورة رجل فاذا حق الواعظ أن تكون له نسبة الي الحكيم والى العامة يأخذ منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف الي اللحم والى العظم جميعا ولولاها لما أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم وهذا مما تؤمل فاطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة

﴿ الباب التاسع والعشرون في ذكر الحال التي يجب
أن يكون عليها الواعظ ﴾

حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ويبصر ثم يبصر ويهتدي ثم يهدي ولا يكون دفترا يفيد ولا يستفيد ومسنا يحد ولا يقطع بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أكثر مما تفيده وكالنار التي تحمى الحديد ولها من الحمى أكثر مما تنيل ويجب أن لايجرح مقاله بفعاله ولا يكذب لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله ومن الناس من يعجبك قوله الي والله لايحب الفساد ونحو ماقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه قصم ظهري رجلان جاهل متنسك وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه والواعظ مالم تكن مع مقاله فعاله لم ينتفع به وذلك ان عمله مدرك بالبصر فأكثر الناس أصحاب الابصار دون البصائر فيجب أن تكون عنايته باظهار عمله الذي يدرك أكثر من عنايته بالذي لايدرك الا بالبصيرة ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوي من المداوى فكما ان الطبيب اذا قال للناس لاتأكلوا كذا فانه سم ثم رأوه

ٓكلامه عد سخرية وهزأ وكذلك الواعظ اذا أمر بما لا يعمله وبهذا النظر قيل ياطبيب طب نفسك بل قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون الآية والآيات منه كثيرة وأيضا فالواعظ من الموعوظ يجرى مجرى الطابع بما ليس منتقشا بها وكذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ماليس موجودا في نفس الواعظ واذا لم يكن الواعظ الا ذاقول مجرد من الفعل لم يتلق عنه الا القول دون الفعل وأيضا فان الواعظ يجرى من الناس مجرى الظل من ذى الظل فكما انه محال أن يعوج ذوالظل والظل مستقيم كذلك محال أن يعوج الموعوظ والواعظ مستقيم وأيضا فكل شئ له حالة يختص بها فانه يجر غيره الى نفسه بقدر وسعه بارادة منه أوغير ارادة كالماء الذى يحيل مايتلقاه من العناصر الى نفسه بقدر وسعه وكذلك النار والارض والهواء فالواعظ اذا كان غاويا جر بغيه غيره الى نفسه ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا وقال أيضا فأغويناكم انا كنا غاوين فمن ترشح للوعظ ثم فعل فعلا قبيحا اقتدى به غيره فيه فقد جمع وزره ووزرهم كما قال عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بل قد قال الله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون وقال عز وجل وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم

(الباب الثلاثون صعوبة المعيار الذى تعرف به حقائق العلوم)

كما ان للدراهم والدنانير ميزانا قد عرف أهلها صحته فلكل علم ميزان نحو الحساب للمعدودات والهندسة للمحسوسات والعروض للشعر والنحو للالفاظ العربية والى هذا أشار تعالى بقوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان وأوصى الذين أعطاهم الميزان فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم وقال أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكل شاك أومنازع غيره فى مقدار فحقه أن يعد ميزانه ان عرفه ويقلد أربابه ان لم يعرفه وان من ترك ذلك وأخذ يخرص ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه

فالخرص قلما يصدق والظن قلما يحقق ولذلك عبر بالخرص عن الكذب فقال تعالى وان هم الا يخرصون وقال تعالى قتل الخراصون وقال تعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ومعلوم ان ميزان الدين الذي صوابه يوصل الى الثواب العظيم وخطؤه يفضي الى العذاب الاليم أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدل والخصام ورام الزعامة فيه قبل أوانها وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها وأخذ كل واحد منهم يخرص خرصا ويظن ظنا ويسلك بظنه طريقا غير نهج فاذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه واعتقد فيما أتبعه ظنه فاذا تحاكموا الى ما اتخذوه ميزانا صار خلافهم في الميزان أكثر من خلافهم فى الموزون فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء لاجرم أن كثيرا من مناظراتهم لاتولد الا شبهة ولا تثمر الا حيرة ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

﴿ الباب الحادى والثلاثون كراهية الجدال للعوام وذمه ﴾

اباحة الجدال للعامة الذين لم يتدربوا فى تحصيل القوانين ولم يتهذبوا فى سبيل البراهين يجري مجري حل قيد الشيطان ورفع يأجوج ومأجوج فانها شؤن سلطان قوتهم السبعية خالفة من يد قائد العقل وقيد الشرع فالجدال مكروه للعلماء الاولياء فكيف الجهال الاغبياء ألا ترى ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى أحسن فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالاحسن هذا مع وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله وانك لعلى خلق عظيم وقال تعالى في ذم الجدال ماضربوه لك الا جدلا وقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقال واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم وللجدال مع كونه مكروها شروط وقوانين من تعاطاها ولم يكن متدربا فيها كان خصما جدلا والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة فان الجدل مع مافيه قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم والخصومة لاتثمر الا

العداوة وانكار الحق ولهذا جعلها الله شرا من الجدال فقال تعالى بل هم قوم خصمون وقال فاذا هو خصيم أى جيد الخصومة مبين ولم يذكر الخصام فى موضع الا عابه وأيضا فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا وكل واحد منهم يجتهد أن يكون هو الفاعل وصاحبه المنطبع والقائل كالمؤثر والسامع كالمتأثر ولم يتولد منهما خير بوجه وقال حكيم المجادل المدافع يقع في نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشئ ومن لا يقنعه الا أن لا يقنع فما الي اقناعه سبيل ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة بل لو اجتمعت عليه الانبياء بكل معجزة كما قال ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة

(الباب الثانى والثلاثون فيما يجب أن يعامل به الجدل المماحك)

اذا ابتليت بمهارش مماحك مناوش قصده اللجاج لا الحجاج ومراده مناواة العلماء ومماراة السفهاء كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء الخ وكما قال الشاعر

تراه معدا للخلاف كأنه * برد على أهل الصواب موكل

فحقك أن تفر منه فرارك من الاساود والاسود فان لم تجد من مزاولته بدا فكابر انكاره الحق انكارك الباطل ودفاعه الصدق مدفاعك الكذب معتبرا في ذلك قوله عزوجل ومكرنا مكرا وقوله ومكروا ومكر الله وقوله تعالى حكاية عن المنافقين انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم وقال فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وبالغ في ذلك معه واياك أن تمرج معه الى بث الحكمة وأن تذكر له شيئا من الحقائق ما لم تتحقق له قلبا طاهرا لائقا للحكمة فقد قال عليه الصلاة والسلام لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب فار لكل تربة غرسا ولكل بناء أسا وما كل الرؤس تستحق التيجان ولا كل طبيعة تستحق افادة البيان وان كان لابد فاقتصر معه على اقناع يبلغه فهمه فقد قيل كما أن لب الثمار مباح للنحل والتبن معدود للانعام كذلك لب الحكمة معد لذوى الالباب وقشورها مجعولة للانعام وكما انه من المحال أن يشم الاخشم ريحانا فمحال أن يفيد الحمار

بيانا * واعلم ان سبيل انكار الحجة والسعي في افسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ولهذا يتحرى المجادل الخصم أبدا بالدفاع لا المعارضة بمثلها وذلك ان الافساد هدم والاتيان بالمثل بناء وهو صعب فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات واحراق النبات ولا يقدر على ايجاد شيء منها يقدر على افساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ولا يمكنه الاتيان بمثلها ولاجل ماقلنا دعا الله في الحجج الى الاتيان بمثلها فقال قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وان كان ذلك مفترى وقال ابراهيم عليه الصلاة والسلام فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب والله الموفق

﴿ الباب الثالث والثلاثون في الوجوه التي من أجلها يقع الشبه والخلاف ﴾

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان المعنى واللفظ أما ما كان من جهة المعنى فاما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة او من جهة الآلة التي تستعمل في النظر فان الناظر في الشيء المعتبر له جار مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير تام العقل كان أعمى البصيرة فيجرى مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن ومن لم يكن أعمى البصيرة لكن هو غير مالك لقوانين البراهين والحجج والادلة كان جاريا مجرى وزان عديم الميزان فأخذ بخمن والمخمن قلما ينفك من غلط بل ماوقع منه من الصواب غير معتد به اذ لا أصل له تسكن اليه النفس ومتى لم يكن أعمى البصيرة لكن لا يعرف أى حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس والمحسوس من جهة المعقول كان جاريا مجرى وزان بصير لكن يزن الدنانير بصنج الدراهم والدراهم بصنج الدنانير وأما ما كان من جهة اللفظ فاما أن يكون ذلك واقعا من جهة مفردات اللفظ أو من جهة مركباته فان كان من مركبات اللفظ فاما أن يكون من حيث ان اللفظ مشترك بين المعنيين

كالبين واليد ونحوهما أو يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام أو مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقرر صورة ذلك الشئ فى نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي فاما ما كان من جهة التركيب فاما ان يكون من جهة الكمية وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب أن يكون أو أقل مما يجب أن يكون واما من جهة الكيفية وذلك بأن يقدم ماحقه أن يؤخر ويؤخر ماحقه أن يقدم كقول الشاعر

وما مثله في الناس الا مملكا * أبو أمه حى أبوه يقاربه

ومن أجل ماوقع في الالفاظ من الشبه قالت الحكماء يجب أن يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ فى الحقيقة لايدل على المعنى الا بوساطة صورة ذلك اللفظ في القلب ومتى لم يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة

﴿ الباب الرابع والثلاثون في بيان اختلاف جميع الناس فى الاديان والمذاهب ﴾

جميع الاختلاف بين الاهل الاديان والمذاهب على أربعة مراتب * الاولى الاختلاف بين أهل الاديان النبوية وبين الخارجين عنها من الثنوية والدهرية وذلك في حدوث العالم وفي الصانع عز وجل وفي التوحيد * والثانية الخلاف بين النبوة بعضهم بعضا وذلك فى الانبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود * والثالثة الخلاف المختص في أهل الدين الواحد بعضهم بعضا في الاصول التى يقع فيها التبديع والتفجير والاختلاف فى كثير من صفات الله عز وجل وفي القدر وكاختلاف المجسمة * والرابعة الاختلاف المختص بأهل المقالات فى فروع المسائل كاختلاف الحنفية والشافعية فالاختلاف الاول يجرى مجرى متنافيين في مسلكيهما كآخذ طريق الشرق وآخذ طريق الغرب وآخذ ناحية الجنوب وآخذ ناحية الشمال والثانى يجرى مجرى آخذ نحو الشرق وآخذ يمينه أو

شماله فهو وان كان أقرب من الاول فليس يخرج أحدهما عن أن يكون ضالا بعيدا واياهما قصد تعالى بقوله ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا والثالث يجري مجرى آخذين وجهة واحدة لكن أحدهما سالك المنهج والثاني تارك له وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وان كانت الطريق تطلق عليه والثالث جار مجرى جماعة سلكوا منهجا واحدا لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله صلى الله عليه وسلم الاختلاف في هذه الامة رحمة وقولهم كل مجتهد في الفروع مصيب ولاجل الطرق الثلاثة أمرنا أن نستعيذ بالله تعالى ونتضرع اليه بقوله اهدنا الصراط المستقيم وقال تعالى وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وجميع الخلاف الواقع في هذه الامة اثنان وسبعون على ماورد في الخبر لازائدا ولا ناقصا وقد ورد الخبر في ذلك على وجهين أحدهما ستفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة وفي الخبر الثاني كلها في الجنة الا واحدة وهي الزنادقة وهذان خبران لايمتنع أن يكونا صحيحين ولكن على نظرين ومعنيين وقد ذكر ذلك وبين في رسالة مفردة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه

﴿ الباب الخامس والثلاثون في النطق والصمت ﴾

النطق أشرف ماخص به الانسان فانه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوان ولهذا قال عز وجل خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه اذ جعل علمه تفسيرا لقوله خلق الانسان تنبيها أن خلقه اياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعا لكانت الانسانية مرتفعة ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة وقيل المرء مخبوء تحت لسانه قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

أي اذا توهم النطق الذي هو باللسان والقوة الناطقة التي هي بالقلب لم يبق الا صورة اللحم والدم فاذا كان الانسان هو الانسان بذلك فمن كان أكثر منه حظا كان أكثر منه انسانية والصمت من حيث هو الصمت مذموم فذلك من

صفات الجمادات فضلا عن الحيوانات وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت وجعل لبعضها صوتا بلا تركيب ومن مدح الصمت فاعتبارا بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا كما روى أن الانسان اذا أصبح كفرت أعضاؤه اللسان فتقول اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا فاما اذا اعتبرا بأنفسهما فمحال أن يقال في الصمت فضل فضلا أن يخاير بينه وبين النطق *وسئل آخر عن فضلهما فقال الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطا وعنه أخذ الشاعر

الصمت أليق بالفتى * من منطق في غير حينه

والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة أن الصمت أبلغ لانه يستعمل فيما لا قوة فيه للنطق ولما له قوة النطق ولهذا قيل لما لا نطق له الصمت والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لم يسم انصاتا في الحقيقة وعليه قوله تعالى واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون فقوله أنصتوا بعد قوله استمعوا يدل على ان الانصات بعد الاستماع ركن خاص بعد عام والاصاخة الاستماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد

﴿ الباب السادس والثلاثون في الصدق ومدحه والكذب وذمه ﴾

أصلهما في القول ولا يكونان بالقصد الاول من القول الا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام فأما بالعرض فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والامر والدعاء وذلك ان قول القائل أزيد في الدار في ضمنه اخبار بكونه جاهلا بحال زيد وكذلك اذا قال واسني في ضمنه أنه محتاج الى المواساة واذا قال لا تؤذني في ضمنه أنه يؤذيه وكلاهما أى الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد أيضا كقولهم صدق ظنه واعتقاده وكذبا ويستعملان أيضا في أعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم وحد الصدق التام هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا بل اما أن يوصف بالصدق

والكذب أو تارة يوصف بالصدق وتارة يوصف بالكذب على نظرين مختلفين كقول الكافر اذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله فانه يصح أن يقال فيه انه صدق لكون المخبر عنه كذلك ويصح أن يقال فيه انه كذب بمخالفة قوله ضميره ولهذا كذبهم الله تعالى حيث قال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم الآية وكذلك اذا قال من لم يعلم كون زيد في الدار انه فى الدار يصح أن يقال صدق وأن يقال كذب بنظرين ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من قال برأيه فى القرآن فأصاب فقد أخطأ وفي خبر فقد كذب على الله والمبرسم لا قصد له فاذا قال زيد فى الدار لا يقال له صدق ولا كذب والصدق أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه وهو أصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ولهذا قال عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين والاختصاص بالكذب انسلاخ من الانسانية لخصوصية الانسان النطق فمن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع واذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء بل يكون شرا من البهيمة فان البهيمة ان لم تنفع بلسانها لم تضر والكاذب يضر ولا ينفع ولهذا قال عز وجل ان هم الا كالانعام بل هم أضل واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الاخبار فليس بكذب على الحقيقة ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التحدث كقولهم فى الحث على مداراة العدو والتلطف فى خدمة الملوك ان سبعا وذئبا وثعلبا اجتمعوا فقالوا نشترك فيما نصيد فصادوا عيرا وظبيا وأرنبا فقال السبع للذئب أقسم فقال هو مقسوم العير لك والظبي لى والارنب للثعلب فوثب السبع فأدماه ثم قال للثعلب اقسم فقال هو مقسوم العير لك لغدائك والظبي لمقيلك والارنب لعشائك فقال من علمك هذه القسمة قال عامتي الثوب الارجوانى الذي على الذئب وعلى امثل حمل قوم قوله عز وجل ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة وقوله تعالى كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة فقالوا يصح هذا لما كان مثلا وان لم تجر العادة

بوجود الحية هكذا

الباب السابع والثلاثون فيما يحسن ويقبح من الصدق والكذب

ذهب كثير من المتكلمين الى أن الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه وقال كثير من الحكماء والمتصوفة ان الكذب يقبح لما فيه من المضرات الخاصة والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الخاصة وذلك أن الاقوال من جملة الافعال ومن الافعال مالا يحسن ولا يقبح لذاته وانما يقبح لما يتعلق به من الضرر على مافيه من النفع وبالعكس ألا ترى أن أعظم مايجرى فى العالم القتل والبغض وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح فكذا المقال من الصدق والكذب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لايحسن الكذب الا في ثلاث اصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته ليرضيها وكذب الرجل في الحرب فانها خدعة وقد ورد اذا أتاكم عنى حديث يدل على هدى أو يرد عن ردىء فاقبلوه قلته أولم أقله وان أتاكم عنى حديث يدل على ردى أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فانى لاأقول الا حقا قالوا والكذب يكون قبيحا بثلاث شرائط أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه وأن يكون المخبر اختلقه عند الاخبار به وأن يقصد ايراد مافى نفسه لانفعا أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لايمكن الوصول الى ذلك النفع بغيره ومع انه اذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلا وآجلا قالوا ولا يلزم على هذا أن يقال احذروا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوى فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لاتعادل ضرر أدنى كذب وانما هذا الذى قلناه يتصور في نفع أخروى يكون الانسان فيه معذورا عاجلا كمن سألك عن مسلم ستتر في دارك وهو يريد قتله فنقول لا فهذا يجوز فان نفع هذا الكذب موفى على ضرره وهو فيه معذور ولا خلاف فى أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب ولم تزل الانبياء والاولياء يفزعون اليها كقول النبي عليه الصلاة والسلام لمن سأله من أين أنت من ماء وقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام انى سقيم وقوله هذه أختى وقوله بل فعله كبيرهم

هذا وأما الصدق فانما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضرره باحد فمعلوم قبح قول من يقصد ويقول السماء فوق والارض تحت من غير أن يريد أن يجعل هذا مقدمة دليل أو افادة معنى تعلقه به فكذلك قبح النميمة والسعاية وان كانا صدقا ولذلك قيل كفى بالسعاية ذما أنه يقبح فيها الصدق وأقبح الكذب مع قبح كله أو جله مالا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب للمقول له ضررا كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول ان ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق اليك وسألك أن تأتيه لينيلك مالا وجاها فاذا وردت لم تجد لذلك صدقا بل وجدت ذلك الملك حنقا عليك

﴿ الباب الثامن والثلاثون فى أنواع الكذب والسبب الداعى اليه ﴾

الكذب اما أن يكون اختراع قصة لاأصل لها أو زيادة فى القصة أو نقصانا يغير ان المعنى أو تحريفا بغير عبارة فما كان اختراعا يقال له الافتراء والاختلاق فان كان بزيادة فمين وكل من أورد كذبا فى غيره فاما أن يقوله بحضرة المقول فيه وهو المعبر عنه بالبهتان وكل من أورد حديثا فاما أن يقوله عن علم أوعن غلبة ظن يحسن أو يقبح فما كان عن تخمين فظن مذموم وعليه قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن الآية واعلم أن الداعى الى الكذب محبة النفع الدنيوى وحب التراث وذلك ان المخبر يرى أن له فضلا على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل فيظن أنه يجلب بما يقوله فضلا ومسرة وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ففضيحة كذبة واحدة لاتوازى مسرة دهره والكذب عار لازم وذل دائم وحق الانسان أن يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص فى أدنى كذب فمن استحلاه عسر عنه فطامه وقال بعض الحكماء كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو انابة ماخلا الكذب فان صاحبه يزداد على الكبر فانا رأينا شارب خمر أقلع واصا نزع ولم نر كذابا رجع وعوتب كذاب فى كذبه فقال لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه والله الهادى

قوله فاما ان يقوله بحضرة الخ لم يذكر مقابله اه

﴿ الباب التاسع والثلاثون في الذكر الحسن من المدح والثناء ﴾

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا وهي من جبلة الناس في خصائصهم ولا يوجد في غيرهم من الحيوان كما قال الشاعر

* حب الثناء طبيعة الانسان *

ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ولما أخافه الهجاء ولا سره الثناء ولا ردعه عن سوء الفعل الاسوط أو سيف ولذا قيل مما ينفر عن القبيح ويحث على الجميل خمسة أشياء العقل ثم الحياء ثم المدح والهجاء ثم الترغيب والترهيب وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة ولم يدعه المدح الى حسنة فهو جماد أو بهيمة ولاجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم وانما يذم ويحمد بحسب المقاصد فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذى يستحب فذلك محمود وهو طريق ابراهيم صلى الله عليه وسلم حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين أي اجعلني بحيث أفعل ماذا مدحت به يكون مادحي صادقا ومن هذا الوجه ندب للانسان أن يقول اذا مدح اللهم اجعلني خيرا مما يظنون والمذموم أن يميل اليه من غير تحرية لفعل مايقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه فانه يفتح له الحسد والحسد يفتح باب الكذب والكذب رأس كل مذمومة وقدتوعد الله سبحانه وتعالي من طلب المحمدة من غير فعل حسنة فقال تعالى لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وينظروا الي قوله صلى الله عليه وسلم من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال المؤمن اذا مدح في وجهه ربا الايمان في قلبه ومن الاول قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا أثنى على آخر فقال قطعت مطاه لو سمع ماأفلح والفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما اذا كان من مادح مطر وجليس مغر ومن يحرف قبل أن يعرف ومن ان وجد قادحا قدح وان وجد مادحا مدح وأما الثناء من

قوله خمسة أشياء المعدود هنا ستة فليحرر اه

الانسان على نفسه فشناعة وفظاعة وقد قيل لحكيم ماالذى لايحسن وان كان حقا فقال مدح الرجل نفسه وقال معاوية رضى الله تعالى عنه لرجل من سيد قومك فقال أنا فقال لو كنته لما قلته واعلم يستقبح من يوسف عليه الصلاة والسلام قوله اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم لانه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوض اليه وقد أحسن ابن الرومى حيث اعتذر عن مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه بقوله

وعزيز على مدحي لنفسي * غير أنى جشمته بدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه * كل حر يريد اظهار آله

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

﴿ الباب الاربعون في الشكر ﴾

الشكر تصور المنعم عليه النعمة واظهارها وهو مقلوب عن الشكر ويضاده الكفر وهو من كفرت الشئ غطيته ودابة شكور أى مظهرة سمنها اسداء صاحبها اليها وقيل أصله من عين شكرى أى ممتلئة فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ومن هذا الوجه قيل هو أبلغ من الحمد لان الحمد ذكر الشئ بصفاته وبنعمه فالشكر على ثلاثة أضرب شكر بالقلب وهو تصور النعمة وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه وهو أيضا باعتبار الشاكر والمشكور ثلاثة أضرب شكر الانسان لمن هو فوقه وهو بالخدمة والثناء والدعاء وشكر لنظيره وهو بالمكافآت وشكر لمن هو دونه وهو بالثواب وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر الصالح عباده وشكر العبد له هو معرفة نعمته وحفظ جوارحه بمنعها عن استعمال مالا ينبغى وشكر المنعم فى الجملة واجب بالعقل كما هو بالشرع وأوجبها شكر البارئ تعالى ثم شكر من جعله سببا لوصول خير اليك على يده ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لايشكر الله من لم يشكر الناس وقال عليه الصلاة والسلام أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لازوال النعمة اذا شكرت ولا دوام لها اذا

كفرت وقال بعضهم كل نعمة يمكن شكرها الا نعمة الله فان شكر نعمته نعمة منه فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكره الاول وكذلك الحال في الثالث والرابع وهذا يؤدى الى مالا يتناهى ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام الهى أمرتنى بالشكر على نعمك وشكرى لك نعمة من نعمك ومن هذا أخذ قول الشاعر

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة * علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر

ولهذا قيل غاية شكر الله تعالى الاعتراف بالعجز عنه بل قد قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وأيضا فكل مايفعل الله بعبده فهو نعمة منه وان كان بعض ذلك يعد بلية ولهذا قال بعض الصالحين يامن منعه عطاء وبلاؤه نعماء ولاجل صعوبة شكره قال عز وجل وقليل من عبادى الشكور ولم يثن بالشكر على أوليائه الا على اثنين منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى شاكرا لانعمه احتباه فخص لفظ لانعمه الدال على أدنى العدد وقال في نوح عليه الصلاة والسلام انه كان عبدا شكورا واعلم أن الشكر والصبر جماع الايمان كما روى فى الخبر الصبر نصف الايمان لكن قال بعض المتصوفة الشكر أفضل من الصبر فان الصبر حبس النفس الى مسالمة البلاء والشكر أن لاتلتفت الى البلاء لتراه من النعماء فمن صبر فقد ترك اظهار الجزع ومن شكر فقد تجاوز الى اظهار السرور وبما جزع له الصابر وأيضا لصبر ترك العمل السيئ والشكر اظهار العمل الحسن وليس من ترك قبيحا كمن فعل جميلا وقابل تعالى الشكر بالمجازاة فعل الحبيب بحبيبه فقال تعالى وسنجزى الشاكرين وقابل الصبر لاجر فعل المستأجر بأجيره فقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وان الاجر وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ثم قال في الصبر يوفى فلم يسم فاعله وقال في الشكر وسنجزى الشاكرين فانظر الى هذا اللطف في المقال قبل الانتهاء الي الفعال ولم يذكر من أنبيائه بالشكر الا اثنين

كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال كل من الصابرين وقال لكل صبار شكور فجعل الصبر مبدأ الشكر تنبيها ولان الصبر محمول عليه قهرا والشكر مؤدى طبعا

﴿ الباب الحادى والاربعون فى الغيبة والنميمة ﴾

الغيبة أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير أن يحوج الى ذكره وقد عظم الله تعالي أمرها فقال ولا يغتب بعضكم بعضا الآية وقال تعالى هماز مشاء بنميم وقال صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة قتات وروى النميمة تفطر الصائم وتنقض الوضوء وقيل من كان عائبا الا كان معيبا وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب آخر لقد تلمظت بما يعافه الكرام وحق الانسان أن لايتعودها فان لها ضراوة ولهذا عير انسان آخر بالغيبة فقال لو تلمظت بها لما صبرت عنها ثم ان من اغتاب اغتيب ومن عاب عيب فبحثه عن عيوب الناس يورث البحث عن عيوبه وكما لايجب أن يتحراها بقوله يجب أن لايسمعها لان سماع كل قبيح يملق ضرره ووسخه بفكرته فتنجس كلمة عوراء لايمكن الطهر منه الا بزمان مديد وعلاج شديد وسماع القبيح قد يكون سببالفساد الكبير الجيد وغواية العالم المستبصر فضلا عن فسادالحدث الغر والناشئ الغمر ولذلك قال عزوجل فى مدح قوم واذا مروا باللغو مروا كراما وقد أجاد من قال

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به

وكقبح الغيبة والنميمة المسابة قال صلى الله عليه وسلم ماتساب اثنان لاغلب الا مهما والا انحط الاعلى الى رتبة الاسفل منهما وقيل اذا سمعت كلمة تؤذيت قتيامن لها حتي تتحاشاك وصلى الله على سيدنا محمد وآله

﴿ الباب الثاني والاربعون في الكلام القبيح البذاء ﴾

الكلام القبيح يكون من القوة الشهوية طورا كالرفث والسخف ويكون من القوة الغضبية طورا فمتي كان معه استعانة بالقوة المفكرة كان معه السباب ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتا مجردا لايفيد نطقا كما يرى فى كثير ممن

ثار غضبه وهاج هائجه والرفث فواحش الكلام في باب النكاح وأوصاف النساء وهو قبيح وقال بعضهم اني لاستقبح من الرجل أن يكون وصافا لبطنه وفرجه ومن حق الانسان أن يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن التفوه به فمه ولذلك وصف الله تعالى قوما فقال واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين والسباب ثلاثة الاول قدح في نسب المسبوب الثاني في نفسه أو بدنه اساءة به أو آفة الثالث في شئ فعله أو فعل به والسفه التسرع الى القول القبيح

﴿ الباب الثالث والاربعون في المزاح والضحك ﴾

المزاح اذا كان على الاقتصاد فهو محمود كما روي عنه عليه الصلاة والسلام اني لامزح ولا أقول الا حقا وروى عنه صلى الله عليه وسلم كلمات مازح بهن وقال سعيد بن العاص اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين لكن الاقتصاد منه صعب جدا لايكاد يوقف عليه ولذلك تحرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء أوفحل لاينتج الا الشر وأما الضحك فمن خصائص الانسان وذلك لانه يكون عن التعجب والتعجب لايكون الا عن فكرة والفكرة تميز الانسان عن البهائم والاقتصاد فيه ومعرفة ماهو حسن منه عسر كالمزاح وقيل اياك وكثرة الضحك فانها تميت القلب وتورث النسيان وقيل كثرة الضحك من الرعونة ويحكى عن عيسى عليه الصلاة والسلام أنه قال ان الله يبغض الضحاك من غير عجب والمشاء الى غير ارب وأما ايراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة وقد قال صلى الله عليه وسلم ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك منه ويل له ويل له

﴿ الباب الرابع والاربعون في الحلف ﴾

الحلف الكذب أقبح من اليمين الفاجرة فيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به وحق المسلم أن يتحاشى من الاستعانة باليمين في الحق فكيف في الباطل وان

يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم ان الاعراض الدنيوية أوبخ أمرا وأخس قدرا من أن يفزع فيها الى اليمين بالله وتقدير ذلك أن القائل اذا قال تالله ان لي عليك كذا أى ان وجود ذلك حق كأن وجود الله حق وهـذا كلام يتحاشى منه في قلبه حبة خردل من تعظيم الله تعالى وقد قال تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا وقال تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وقال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه الحلف ينفق السلعه ويذهب البركة وان يخص يمينا من يمين وأما قوله صلى الله عليه وسلم من لم يحلف على ماله فلا مال له فانه وان كان ينظر الفقهاء انه يفسح له في الحلف صادقا فانه ينظر الحكماء حث على اتيان تعظيم الله تعالى وتقديم على ايثار المال وتعريض بأن الذى فانه هو عرض حاضر لاالدين والمروءة وحق العاقل اذا اضطر اليه أن يسلك سبيل التعريض اليه دون التصريح وما لا يضطر اليه يتركه تعريضا وتصريحا وان بدر منه سهوا حلف يدرؤه بالاستثناء كما قال صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فليقل ان شاء الله فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويرد للحاجة وقيل العاقل اذا تكلم أتبع كلامه مثلا والاحمق اذا تكلم أتبع كلامه حلفا وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف قال الشاعر

وفي اليمين على ماأنت واعده * مادل أنك في الميعاد متهم

وقال بعض الحكماء الحلافة تدل على كذب أربابها لان ذلك لقلة الركون الى كلامهم وكما جوز عليه الصلاة والسلام الكذب اذا اضطر اليه جوز الحنث في اليمين فقال اذا حلف أحدكم على شئ فرأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه

﴿الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهويه﴾

(الباب الاول في الحياء)

الحياء انقباض النفس عن القبائح وهو من خصائص الانسان وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان وجعله الله سبحانه في الانسان ليرتدع به عما تنزع

اليه الشهوة من القبائح فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من جبن وعفة ولذلك يكون المستحي فاسقا ولا الفاسق مستحييا لتنافى اجتماع العفة والفسق وقلما يكون الشجاع مستحييا والمستحي شجاعا لتنافى اجتماع الجبن والشجاعة ولقلة وجود ذلك يجتمع الشعراء بين المدح بالشجاعة وبين المدح بالحياء نحو قول الشاعر

يجرى الحياء الغض من جسمانهم * فى حين يجرى من أكفهم الدم

وقال

كريم يغض الطرف فضل حيائه * ويدنو وأطراف الرماح دواني

ومتى مدح بالانقباض فمدح للصبيان دون المشايخ ومتى قصد به ترك القبيح فمدح لكل أحد وبالاعتبار الاول قيل الحياء للافاضل قبيح ومن هذا الوجه خزى خزيا فى الهوان وخزي خزاية فى الاستحياء فجملا من منبع واحد وبالاعتبار الثاني قيل ان الله يستحي من ذي الشيبة في الاسلام أن يعذبه أى يترك عذابه وأما الخجل لحيرة النفس لفرط الحياء ويحمد في النساء والصبيان ويذم باتفاق من الرجال والوقاحة مذمومة بكل انسان اذهى انسلاخ من الانسانية وحقيقتها لجاج النفس في تعاطى القبيح واشتقاقه من حافر وقاح أى صلب وبهذه المناسبة قال الشاعر

ياليت لى من جلد وجهك رقعة * فأقد منها حافرا للاشهب

وما أصدق قول الشاعر

صلابة الوجه لم تغلب على أحد * الا تكامل فيه الشر واجتمعا

فأما مداواة اكتساب الحياء اذا هم بقبيح فبأن يتصور أعظم مافي نفسه ولذلك لايستحي من الحيوان ولا من الاطفال الذين لايميزون ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة أكثر من الواحد والذى يستحي منهم الانسان ثلاثة البشر وهو أكثر مايستحيا منه ثم نفسه ثم الله عزّ وجل ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه أخس عنده من غيره ومن

استحيا منهما ولم يستحي من الله عزّ وجل فلعدم معرفته به فان الانسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه ويسمع نجواه ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه وقوله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء في ضمنه حث على معرفته وقال الله عزّ وجل ألم يعلم بأن الله يرى تنبيها على أن العبد اذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب * وسئل الجنيد عما يولد الحياء من الله تعالى فقال رؤية العبد آلاء الله عليه ورؤية تقصيره عن شكره * ان قيل كيف قال عليه الصلاة والسلام من لا حياء له لا ايمان له * قيل الحياء أول ما يظهر في الانسان من أمارة العقل والايمان آخر مرتبة العقل ومحال حصول المرتبة الاخيرة لمن لم تحصل له الاولى فبالواجب اذا كان من لا حياء له لا ايمان له وقال صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء

﴿ الباب الثاني في كبر الهمة ﴾

وأما كبر الهمة فخاص بالانسان وأما سائر الحيوان فكل جنس يجري الى الفعل بقدر ما في طبعه وهو حال بين التفنج وصغر الهمة فالتفنج تأهل الانسان لما لا يستحقه وهو البذخ وصغر الهمة ترك لما لا يستحقه وهو الدناءة وكلاهما مذموم لكن المتفنج جاهل أحمق وصغير الهمة جاهل غير أحمق وليس لكبر الهمة افراط مذموم في الحقيقة وانما الافراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس تصوره عدم الهمة وليس كذلك واعلم أنه يقال فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة اذا كان أحدهما يطلب مقتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر والكبير الهمة على الاطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة والصغير الهمة من كان على الضد من ذلك وقال اعرابي فلان عظمه صغر الدنيا في عينه فكان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي مالا يجد ولا يكثر اذا وجد وخارجا من

سلطان فرجه فلا يستحق له رأيا ولا بدنا وحق الانسان ان يتظلف من ذلك فانه وان كان بعنصره حيوانا فبعقله وفكره ملك اذا ضيع نفسه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين وقيل من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة فان أمكنك أن تقتني قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل فلااعتداد بما له فناء والكبير الهمة على الاطلاق من يتحرى الفضائل لاللذة ولاالثروة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية بل يتحرى مصالح العباد شاكرا بذلك نعمة الله وطالبا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه فانه

* اذا عظم المطلوب قل المساعد * وطرق العلاء قليلة الايناس

﴿ الباب الثالث في الوفاء والغدر ﴾

الوفاء أخو الصدق والعدل والغدر أخو الكذب والجور وذلك ان الوفاء صدق باللسان والفعل معا والغدر كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد والوفاء يختص بالانسان فمن فقده فقد انسلخ من الانسانية كالصدق وجعل الله سبحانه وتعالى العهد من الايمان وصيره قواما لامور الناس فالناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم الا بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعايش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون وقال تعالي وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم وقال تعالى وثيابك فطهر أي نزه نفسك عن الغدر وقال عز وجل والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقال عز وجل والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون وعظم حال السموأل فيما التزم به من الوفاء بدروع امرئ القيس ولقلة وجود ذلك في الناس قال تعالى وما وجدنا لاكثرهم من عهد وضرب المثل به في العزة فقيل هو أعز من الوفاء قال الشاعر

أبى الناس الا ذميم الفعال * اذا جربوا وقبيح الكذب

﴿ الباب الرابع في المشاورة ﴾

اشتقاقها من شرت الدابة اذا استخرجت جريها وهي استنباط المرء رأي

غيره فيما يعرض له من الامور المشكلات ويكون ذلك فى الجهة التى يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها ونعمت العدة هى قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه المشاورة حصن من الندامة وأمن من الملامة وقيل الاحمق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة فالرأى الواحد كالسحيل والرأيان كالخطين والثلاثة امرار لاينقض وكفاك بمدحه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاورهم في الامر وقد استحسن الحكماء قول بشار

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو نصاحة حازم
ولاتحسب الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافى تابع للقوادم

لكن اعتبار من تجوز مشورته صعب جدا فانه يحتاج أن يكون صديقا مجربا حازما ناصحا رابط الجاش غير معجب بنفسه ولا متلون في رأيه ولا كاذب في مقاله فمن كذب لسانه كذب رأيه ويجب أن يكون فارغ البال فى وقت مايستشار فقد أحسن بشار في قوله

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا مااستجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

﴿ الباب الخامس فى النصح ﴾

النصح أصله من نصحت الثوب اذا خطته وهو اخلاص المحبة لغيره فى اظهار ما فيه صلاحه وهو ذوب المحبة المختصة بالفضيلة دون محبة النفع واللذة وقد عظم النبى صلى الله عليه وسلم أمرها فقال الدين النصيحة فقيل لمن يارسول الله فقال لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فبين صلى الله عليه وسلم أن النصح واجب لكافة الناس وذلك بأن تتحرى مصالحهم فى جميع أمورهم بقدر وسعك وأول النصح أن ينصح الانسان نفسه فمن غشها فقلما ينصح غيره وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وان كان ذلك في شئ يضره ويتحرى فيه قول الله عز وجل يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم وقال تعالى واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وقال ابن عباس رضى الله تعالى

عنه لايزال الرجل يزداد في صحة رأيه مانصح لمشيره فاذا غشه سلبه الله تعالى
محته ولا يلتفتن الى ماقيل اذا نصحت صاحبك فلم يقبل منك فتقرب الى الله
بغشه فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه اللهم الا أن يريد بغشه السكوت فقد
قيل كثرة النصيحة تورث الظنة ومعرفة الناصح من الغاش المتنصح صعبة جدا
فالانسان بمكره يمنع الاطلاع على سره اذ هو يبدى خلاف مايخفى وليس
كالحيوان الذى يمكن الاطلاع على طبيعته

الباب السادس في كتمان السر

السر ضربان أحدهما مايلقى الى الانسان من حديث يستكتم وذلك اما
لفظا كقولك لغيرك اكتم مااقول لك واما حالا وهو أن يتحرى القائل حال
انفراده فيما يورده أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسه ولهذا قيل اذا حدثك
انسان بحديث فالتفت فهو أمانة والثانى أن يكون حديثا في نفسك ماتستقبح
اشاعته أو شيئ تريد فعله والى الاول من ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم
بقوله من أتى منكم من هذه القاذورات بشئ فليستتر بستر الله والى الثانى
أشار من قال من وهى الامر اعلانه قبل احكامه وكتمان النوع الاول من
الوفاء وهو أخص بعامة الناس والثاني من الحزم والاحتياط وهو أخص
بالملوك وأصحاب السياسات واذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر وتوصف
به ضعفة الرجال والنساء والصبيان والسبب في انه يصعب كتمان السر هو أن
للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما مما تتشوف الى الفعل المختص بها ولولا
ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ماعندها لما أتاك بالاخبار من لم تزود فصارت
هذه القوة تتشوف الى فعلها الخاص تحت اطلاقها ولا يخدعنك عن سرك قول
من قال شعرا * واكتم السر فيه ضربة العنق *
وله

وكاتم الاسرار حتى انه * ليصونها عن أن تمر بباله

لان من يستنزلك عما في قلبك فاذا استفرغ ماعندك لم يرع فيه حفظك

فقد قيل الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه أريد أن أفضي اليك سرا تحفظه على فقال لاأريد أن أرى قلبي بجوك وأجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ماأقلقك ويؤرقني ماأرقك فتبيت بافشائه مستريحا ويبيت قلبي بحره جريحا وقيل أكثر مايستنزل الانسان عن سره في ثلاثة مواضع عند الاضطجاع على فراشه وعند خلوته بعرسه وفي حال سكره ومن حق من يسارر غيره أن يجتنب المحافل لامرين أحدهما حذرا من أن يساء به الظن فيقال هذا يقول قد خبأ شيئا وهذا يسترب وذا يتهم والثاني ربما يتبع المتخصص فيطلع على مراده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث

﴿ الباب السابع في التواضع والكبر ﴾

التواضع مشتق من الضعة وهو رضا الانسان بمنزلة دون مايستحقه فضله ومنزلته وفضيلة لاتكاد تظهر في أفناء الناس لانحطاط درجتهم وانما ذلك يتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم وهو من باب التفضل لانه يترك بعض حقه وهو بين الكبر والضعة فالضعة وضع الانسان نفسه منزلة تزرى به ليضع حقه والكبر وضع نفسه فوق قدره والفرق بين التواضع والخشوع ان التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع وأيضا فالتواضع يعتبر بالاخلاق والافعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ولذلك يقال تواضع القلب وخشعت الجوارح وقال عز وجل خاشعة أبصارهم وخشعت الاصوات للرحمن وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم التواضع فقال طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة وقيل لبزر جمهر هل تعرف نعمة لايحسد عليها وبلاء لايرحم صاحبه عليه قال نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالكبر وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكبر مع الادب والسخاء فأحسن بحسنة غطت على سيئتين وأقبح بسيئة غطت على

خصلتين فالكبر ظن الانسان أنه أكبر من غيره والتكبر اظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها الا الله عز وجل ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ولذلك صار مدحاً فى البارى تعالى وذما في البشر وانما شرف المخلوق في اظهار العبودية كما قال تعالي لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون تنبيها على ان ذلك لهم رفعة لاضعة والمتكبر والضرع كلاهما جاهل لكن الضرع غبي والمتكبر غير أحمق وشتان مابينهما والغبي قد يتأدب والاحمق لاسبيل الى تأديبه ولان الضرع قد ترك ماله والاحمق قد ادعي ماليس له وشتان مابين المنزلتين ولان التكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل رأس الانسلاخ من الانسانية ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال انه لايحب المستكبرين وقال تعالى اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال صلى الله عليه وسلم عن الله العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعني واحدة منهما قذفته في نار جهنم ونبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وأقبح كبر بين الناس ماكان معه بخل ولذلك قال عليه الصلاة والسلام خصلتان لايجتمعان في مؤمن الكبر والبخل واستحسن قول الشاعر

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * نفس الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ومن تفكر في ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأواسطه عرف بعضه وروض كبره وقد نبه الله على ذلك بقوله فلينظر الانسان مم خلق الآية وقال تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه وقال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج والى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد الله الشخير لما قال ليزيد بن المهلب

كيف يزهى من ضجيعه * أبد الدهر رجيعه

وقال يا قريب العهد بالمخـــرج لم لاتتواضع

فمن كان تكبره لقنيته فليعلم أن ذلك ظل زائل وعارية مستردة والاستطالة اظهار الطول فمن أظهر ذلك من غير طول فمنسلخ من الانسانية ومن أظهره مع طوله فقد ضيع الطول والصلف يقال اعتبار الميل في عنقه والصعر الميل في خده ولذلك استعمل فيه لي الرأس نحو قوله تعالى لووا رؤسهم ٢ والبأو استقصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب والخيلاء أن يظن في نفسه ماليس فيها من قولهم خلت ولتصور هذا المعنى قال حكيم اعجاب المرء بنفســه أن يظن بها ماليس فيها مع ضعف قوة فيظهر فرحه والزهو الاستخفاف من الفرح بنفسه وأما العزة فالترفع بالنفس عما يلحقه غضاضـة وأصلها من العزاز وهو الارض الصلبة فالمتعزز من حصوله في عزاز لايلحقه فيــه غضاضة كالمتظالف في كونه في ظلف من الارض لايلحقه مذلة والعزة منزلة شريفـة وهي نتيجة معرفة الانسان بقدر نفســه واكرامها عن الضراعة للاعراض الدنيوية كما أن الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر نفسه وانزالها فوق منزلتها وكثيرا مايتصور أحدهما بصورة الآخر كتصور التواضع والتضرع والتـذلل بصورة واحـدة وتصور الاسراف بصورة الجود والبخل بصورة الحزم ولهذا قال الحسن رضى الله تعالى عنه لمن قال له ماأعظمك من نفســك فقال لست بعظيم ولكنى عزيز قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاينبغي للمؤمن أن يذل نفســه ولمـا قلنا قالوا التكبر على الاغنياء تواضع تنبيها على ان هـذا التكبر عزة نفس ومن أجل ان هذا التكبر غير مذموم قال عز وجل يتكبرون في الارض بغير الحق وقال ابن مسعود رضى الله تعـالى عنه من خضع لغـنى فوضع نفسه عنده طمعا فيه ذهب ثلثا دينه وشطر مروءته

﴿ الباب الثامن في الفخر ﴾

وقوله والبأو الخ في القاموس بأى نفسه رفعها وفخر بها اه

الفخر هو المباهاة بالاشياء الخارجة عن الانسانية وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله وانحسر عنه قناع جهله فأعراض الدنيا عارية مستردة لايؤمن كل ساعة أن ترتجع فالمباهي بها مباه بغير ثراء ومبجح بما فى نظر سواء كالفاجرة تجدح بزي أهلها هو أدون من ذلك فقد قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه ان افتخرت بفرسك فالحسن (٢) والفراهة له دونك وان افتخرت بآبائك الفضل فيهم لافيك ولو تكلمت هذه الاشياء لقالت هذه محاسننا فما لك من الحسن وأيضا فالاعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قال الشاعر

انما الدنيا كرؤيا فرحت * من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فان افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك واذا أعجبك من الدنيا شئ فاذكر فناءك و بقاءه أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعا فاذا راقك ماهو لك فانظر الي قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه اليك وطول حسابك عليه ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله ان الله لايحب كل مختال فخور

﴿ الباب التاسع فى العجب ﴾

العجب ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ولهذا قال أعرابي لرجل معجب بنفسه يسرني أن أكون عند الناس مثلك عند نفسك وأكون فى نفسي مثلك عند الناس فتمنى حقيقة مايقدره المخاطب ورأى ذلك انما يتم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه وقد قيل للحسن من شر الناس فقال من يري أنه أفضلهم فقال بعضهم الكاذب أبعد الناس من الفضل والمرائى أسوأ حالا من الكاذب لانه يكذب بقوله وفعله والمعجب أسوأ حالا منهما فانهما

قوله والفراهة في الصحاح الفاره من الناس المليح الحسن ومن الدواب الجيد السير اه وفيه المعنى المقصود اه

بها كلذة العلم والحكمة ولذة بدنية يشارك فيها جميع الحيوانات الانسان كلذة المأكل والمشرب والمنكح ولذة يشارك فيها بعض الحيوان الانسان كلذة الرياسة والغلبة وأشرفها وأقلها وجودا اللذة العقلية فشرفها انها لاتمل وتبذل بها لكن لايعرفها الا من تخصص بها فالحكمة لايعرفها الا الحكيم وأدنى اللذات منزلة وأكثرها وجودا اللذة البدنية فكل انسان يتشوفها وكل حيوان لكنها تمل تارة وتراد تارة وهي من وجوه مداواة من آلام ومن وجوه هي آلام وعلى هذا قال الحسن في وصف الانسان صريع جوع وقتيل شبع وجميع اللذات تقسم عشرة أقسام مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومشم ومسمع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات وما أشبهها وقد جعل ذلك سبعة وأدخل المركب والمرفق والخادم من جملة المبصرات وعلى ذلك ماروى أن أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه قال لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه وقد رآه يتنفس علام تنفسك ياعمار ان كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك وان كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فاني وجدت لذاتها سبعا المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو من ذباب وأما المشروبات فأفضلها الماء وهو ماء أهون موجود وأعز مفقود وأما المنكوحات فبال في مبال وحسبك ان المرأة تزين بأحسن شئ وتراد بأقبح شئ منها وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دود وأما المشمومات فأفضلها المسك وهو دم فأرة وأما المسموعات فريح هابة في الهواء وأما المبصرات فخيالات صائرة الي الفناء وقد ذكر الله عز وجل أصل ذلك في قوله زين للناس حب الشهوات والمشار اليه بحرث الدنيا هذه الاشياء السبعة على ماذكر أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه والعشرة على ما ذكر غيره وكلا القولين في التحصيل واحد والمراد بالنساء اقتناؤهن والاستكثار منهن وبالبنين الذكر من الاولاد والحفد والخدم وبالانعام الازواج الثمانية وبالخيل المسومة السائمة منها والمستعدة واعلم أن التى هي ضرورية للانسان من هذه

يريان نقص أنفسهما ويريدان اخفاءه والمعجب أعمى عن مساوى نفسه فيراها محاسن ويبديها قالوا والمرائى والكاذب قد ينتفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من مكان فى البحر فيؤديهم ذلك الى العطب وقد يحمد رأى الرئيس اذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير والمعجب لاحظ له فى ذلك بوجه لانك اذا وعظت المرائى والكاذب فنفسهما تصدقك وتبكتهما لمعرفتها بنقصهما والمعجب لجهله بنفسه يظنك فى وعظه ملغيا فلا ينتفع بمقالك واياه قصد تعالى بقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ثم قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات تنبيها على أنهم لا يعقلون لاعجابهم وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه يقول ابليس اذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها اذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وكما أن المعجب بفرسه وان كان رديئا لا يروم ان يستبدل به غيره كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله وان كانت رديئة بدلا وأصل الاعجاب من حب الانسان نفسه وقد قال صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمي ويصم ومن عمى وصم تعذرت عليه معرفة عيوبه فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيونا تعرفنا عيوبنا بحق قال عمر رضى الله تعالى عنه رحم الله امرأ أهدى الىّ عيوبى ويجب على الانسان اذا رأى من غيره سيئة أن يرجع على نفسه فان رأى منها ذلك نزعها ولم يغفل عنها قال الشاعر

ومن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه مالا يرى

والتيه قريب من العجب لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهما والتياه يصدقها قطعا كأنه متحير في تيه

﴿ الباب العاشر فى أنواع اللذات وتفاضلها ﴾

اللذة ادراك النفس المشتهى والشهوة انبعاث لنيل ماتتشوقه وهى ثلاث بحسب القوى الثلاث فبحسب المعينات الثلاث لذة عقلية وهي التى يختص الانسان

اللذات ولا قوام له الا بها ماهو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان المأكل والمشرب يجمعهما اسم الغذاء والنكح فبالغذاء بقاء الاشباح وبالنكاح بقاء الانواع ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصار تناولهما لابد للناس منه وسائر اللذات مخصوص بها الانسان وليس بضروري له ويتناوله بمكره وتأنف الملوك من هذه الملاذ الا اثنتين السماع لكونه لذة روحانية والثناء لكونه دالا على الهمة لرفيعة ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية قيل لها الحرص والحريص قد يكون محمودا ولذلك قال تعالى حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها الشره سواء كان مالا أو نكاحا فمتى كانت للطعام قيل لها النهم ومتى كانت للنكاح قيل لها الشبق ولانها اعنى الشره والنهم والشبق مذمومة وما روى من قوله منهومان لايشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم فالنهم بالعلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ماتقصر قواه عنه فينبت وقد قال صلى الله عليه وسلم ان المنبت لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى

﴿ الباب الحادى عشر فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه ﴾

الغذاء ضربان أحدهما مالا يستغنى عنه في قوام البدن كالطعام الذى به يتغذى والماء الذى به يروى والانسان اذا تناول من ذلك مقدار مايمكن التبلغ بأقل منه على مايجب وكما يجب معذور بل مشكور ومأجور وعلى هذا ماروى عند أكل الصالحين تنزل الرحمة وحقه أن يتناوله تناول مضطر عالم بقذارته ويرى أن ادخاله نفسه كدخول المستراح ويتحقق أن نسبة الانسان الى الفواكه والثمار نسبة الجعل الى الروث فلو نطق الشجر لقال لك أنت تأكل فضالتى كما يأكل الجعل فضالتك والخنزير اذا استطاب لفظة الانسان فما هو الا كاستطابتنا لفاظة الشجر وبهذا يعلم ان شرف المطعم والمشرب بالاضافة لا بالاطلاق فألق أيها الانسان عن مناكبك الدثار وحد البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ماقلت ومن تناول من الطعام أكثر من ذلك كره له طبا وشرعا أما طبا

فان الداء أكثر ماتراه ۞ يكون من الطعام أو الشراب

وقد قال صلى الله عليه وسلم البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعود كل بدن مااعتاد وقال ابن زكريا المتطبب ماترك النبي صلى الله عليه وسلم من الطب شيأ الا وأتى به في هذه الكلمات الثلاث وأما شرعا فقد قال صلى الله عليه وسلم ما من وعاء أبغض الى الله من بطن ملئ من حلال وذلك أن امتلاء البطن مقوم للشهوة وقومة الشهوة داعية للهوى والهوى أعظم جند للشيطان ومن آثر هواه انتشر في بدنه وحل في كل عضو منه خرق بقدر وسعه له فكثر جنود الشيطان والشيطان اذا تسلط على الانسان سباه من ربه وصرفه من بابه وقيل لحكيم مالك مع كبرك لاتتفقد بدنك وقد انهد فقال لانه سريع المرح فاحش الاثر فأخاف أن يجمح بي فيورطني والان أحمله على الشدائد أحب الى من أن يحملني على الفواحش * والضرب الثاني من المطاعم مايستغنى عنه ولو توهمناه مفقودا لم يختل بافتقاده البدن وأعظمها ضررا المسكر فنفعه ليس بضروري انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر وقيل حيث الشراب واللهو لاتسكن الحكمة والعفة فان قيل فقد قال الله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق لم يخص من الحلال قدرا دون قدر وجنسا دون جنس قيل الطيب التام هو الذى جمع بين اللذة والنفع والفضيلة وذلك هو القدر المتبلغ به على مايجب وكما يجب ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده فقال تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل وقال تعالى والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام ومن الدلالة على خسة كثرة الاكل ادعاء العامة الاستغناء بالقليل وقلة وجود المفتخر بكثرة الاكل وقيل من همه مايدخل بطنه فقيمته مايخرج منها وقد استحسن قول الشاعر

فانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك نالا غاية الذم أجمعا

وقال صلى الله عليه وسلم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان أبيت فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن يأكل في

معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء فنبه من الخبرين أنه لا يستحب للانسان الا الاكل في ثلث بطنه وهو ماذكره من اللقيمات وذلك دون عشر لقيمات لان الجميع بالالف والتاء فيما دون العشر ثم رخص لمن يغلب عليه النهم أن يبلغ الى ثلث بطنه فحصل من ذلك أن يكون أكل المؤمن في اليوم بحسب شبع بطنه ثلثه

﴿الباب الثانى عشر فيما يحسن من التنكح ومايقبح منه﴾

قد تقدم أن النكاح ضرورى في حفظ النسل وبقاء النوع كما أن الغذاء ضرورى فى حفظ الشخص ولذلك قال صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا تكثروا فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة وقال خير النساء الودود الولود وقال سوداء ولود خير من حسناء عقيم ولقصد النسل خطر اتيان النساء في محاشها وعلى هذا نبه بقوله عز وجل نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم فنبه على انه لايجوز اتيانها الا فى الحرث وكره العزل توكيدا للمقصود من الجماع وعلى ذلك دل قوله عز وجل وابتغوا ما كتب الله لكم وتحرى النكاح على ضربين أحدهما على الوجه الذى سنه الشرع وذلك اما محمود وهو أن يتعاطاه قاصدا به النسل أو مزيلا على مايجب لوجهه أو مسكنا لنفسه فالماء اذا اجتمع فى مقره يدعو صاحبه الى ماهو في الشرع محرم أو مكروه طالبا ان لم يكن قد كره شرعا وذلك أن يتعاطاه المرء فضلا عما تقدم ذكره فانه ينفذ العمر ويستنفذ القوى ويوسع أوعية المنى ويجلب اليها دما كثيرا ويزيده شهوة وأعظم فائدة فيه أن يلحق صاحبه بافق البهائم من الجاموس والثيران ونحوها مما يوصف بالشبق والضرب الثانى هو أن يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان أحدهما تعاطيه فى الحرث ولكن لاعلى الوجه الذى يجب وكما يجب كالزنا وقد عظم الله عز وجل أمره فقال الزانى لاينكح الا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس المحرمة فقال عز وجل والذين لايدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا

يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما وسمى ذلك سفاحا من حيث ان الجثماني عليه لاغرض لهما سوى سفح الماء للشهوة كمن ضيع مالا فى غير حرثه والثاني تعاطيه في غير الحرث كاللواطة وهي أعظم من الزنا لان الزنا وضع البذر في الحرث على غير الوجه المأمور به فهو كمن يزرع في أرض غيره أو على غير الوجه الذي يجوز أن يزرع فيها وفي اللواطء مع ذلك تضييع البذر فتعاطيها ممن قال عز وجل فيه ويهلك الحرث والنسل ولهذا وصف الله تعالى قوم لوط بالاسراف فقال انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وأما العشق الشهوى فحمق وجهل بما وضع لاجله الجماع وتجاوز حد البهائم فى عدم ملكه النفس وذم الهوى لان المتعشق لم يرض بارادة لذة الباه التي هي من أسمج الشهوات حتى أرادها من موضع واحد فازداد بذلك عبودية وذلة على ذلة والبهيمة أحسن حالا منه لانها اذا أسقطت الاذى عن نفسها بالسفاد سكنت فصارت الى الراحة وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل فى خدمة الشهوة واستحلائها وانما أعطاه العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لاليجعله خادما لها وساعيا فى حقها وتعاطى العشق حال كل جاهل فارغ سيما اذا نظر فى أحوال العشاق وجالسهم وربما يؤدى حال العشاق الى الرق والذبول بل الي الموت قال

لو فكر العاشق في منتهى * معشوقه قصر عن عشقه

ومن أراد شقوته فهو كمن يثير بهائم عارية وسباعا ضارية ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها وكفى بما يهتاج من باعث الطبيعة عن اثارتك بالفكرة والروية فمن أعان الطبيعة على ذلك كان كما قيل

كلما ركب الزمان قناة * ركب المرء في القناة سنانا

وقال حكيم لتلميذ له هوى جارية هل تشك في انك تفارقها يوما ما قال نعم قال فاجعل ذلك المرارة المخترعة فى ذلك اليوم فى يومك هذا وارتح ما بينهما من هول اليوم المنتظر وصعوبة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الالفة اليه وقيل

لبعض الحكماء ماالعشق فقال جنون لا يؤجر صاحبه عليه وسئل آخر عنه فقال مرض نفس فارغة لاهمة لها وقال آخر هو اختيار صادف نفسا فارغة فأشاروا كلهم الى معنى واحد

﴿ الباب الثالث عشر فى العفة ﴾

العفة لا تتعلق الا بالقوة الشهوية لا بالملاذ الحيوانية وهى المتعلقة بالفارين البطن والفرج دون الالوان الحسنة والالحان الطيبة والاشكال المنتظمة فان قيل فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم ألا ترى أن الذئب يستطيب ريح الغنم والكلب يستطيب ريح الارنب قيل استطابتها لذلك استطابة للاكل والذى قلناه من الرائحة هو مايستطاب لذاته لا لاجل غيره وماهو لاجل أحد الفارين فحكمه حكمهما كاستطابة الانسان ريح السكباج فثبت ان العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانيـة وهى الحالة المتوسطة بين افراط هو الشره وبين تفريط هو جمود الشهوة وهي أس الفضائل من القناعة والصمة والزهد وغنى النفس والسخاء وعدمها يغطى على جميع المحاسن ويعرى من لبوس المحامد ومن اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ماسواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول الى المحاسن وأسها يتعلق بضبط القلب عن الشهوات البدنية وعن اعتقاد مايكون جالبا للبغى والعدوان وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح فمن عدم عفة القلب والعقل يكون منه التمنى وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة لان من تمنى مافي يد غيره حسده فاذا حسده عاداه واذا عاداه نازعه ومن نازعه ربما قتله ومن أساء الظن عادى وبغي وتعدى ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما جميعا فقال ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض وقال ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فأمر فيهما بقلع أصل شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل ولا يكون الانسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها فى اللسان السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالالقاب ومن عدمها في البصر مده العين الى المحارم وزينة الحياة

الدنيا المولدة للشهوات الرديئة ومن عدمها في السمع الاصفاء الى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها فى شئ مما يخص كل وحد منها الا فيما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى واعلم انه لايكون المتعفف عفيفا الا بشرائط وهى أن لايكون تعففه عن الشئ انتظارا لاكثر منه أو لانه لايوافقه أولجمود شهوته أو لاستشعار خوف من عاقبته أو لانه ممنوع من تناوله أولانه غير عارف لقصوره فان ذلك كله غير عفة بل هو اصطياد أو تطبب أو مرض أوحزم أو عجز أو جهل وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب والشهوة مقاتلة مخادعة والغضب مغالب والمتحسر عن قتال المخادع أدرا حالا من المتحسر عن المغالب ولهذا قيل عبد الشهوة أذل من عبد الرق وأيضا فالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بمدينة لها ستة أبواب رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها وليس من تعاطى قبيحها يعرفه كمن تعاطاه وهو يظنه حسنا

﴿ الباب الرابع عشر في القناعة ﴾

القناعة الرضا بما دون الكفاية والزهد الاقتصار على الزهيد أى القليل وهما يتقاربان لكن القناعة تقال اعتبارا برضا النفس والزهد يقال اعتبارا بالمتناول لحظ النفس وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ولذلك قال بعض الصوفية القناعة أول الزهد تنبيها على ان الانسان يحتاج أولا الى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطى الزهد والقناعة هى الغنى في الحقيقة والناس كلهم فقراء من وجهين أحدهم لافتقارهم الى الله عز وجل كما قال تعالى يأيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد والثاني لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة فمن سد مفاقره بالمقتنيات فما في انسدادها مطمع فهو كمن يرقع الخرق بالخرق ويسد الفقر بالفقر ومن سدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على ضرورياته فهو الغنى والمقرب الى الله تعالى كما اشار تعالى اليه فيما حكى عن طالوت ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه

فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ولان الغنى هو عدم الحاجة فاغناهم أقلهم حاجة ولذلك كان الله سبحانه وتعالي أغنى الاغنياء لانه لاحاجة به الى شئ وعلى هذا نبه النبي صلي الله عليه وسلم بقوله ليس الغنى من كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس ومن أبيات الحكمة

غنى النفس مايكفيك من سد حاجة * فان زاد شيئا عادذاك الغنى فقرا

والخير بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بها كالخير بين أن يكون مالكا أو مملوكا وقويا أو ضعيفا ومعافى أو مبتلى وميتا أو حيا فمتى اختار الاستغناء بها فقد اختار أن يكون مملوكا وضعيفا وميتا ومبتلى ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش وقيل لحكيم لم لاتغتم فقال لاني لم أجد مايغمنى واعلم أن الزهد ليس من ترك المكاسب فى شئ كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة فان ذلك يؤدي الى خراب العالم ومضادة الله عز وجل فيما قدر ودبر وقد تقدم والزهد من وجه صبر ومن وجه جود والجود ضربان جود بما فى يدك متبرعا وجود عما فى يد غيرك متورعا وذلك أشرفهما ولا يحصل الزهد في الحقيقة الا لمن يعرف الدنيا ماهى ويعرف عيوبها وآفاتها ويتحقق مايستغنى عنها و يعرف الآخرة وافتقاره اليها ولاجل انه لابد فى ذلك من العلم قال تعالي قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون ولان الزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة فهو يبيعها بها ثم قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ومحال أن يبيع كيس عينا باثر الا اذا عرفها عارف وعرف فضل المبتاع على المبيع وقيل لبعض الزهاد ماأزهدك وأصبرك فقال أما زهدى فرغبة فيما هو أعظم مما هو أعظم مما أنا فيه وأما صبرى فلجزعى من النار

﴿الباب الخامس عشر فى الورع﴾

الورع أصله جبن وضعف وقد يستعمل فى كل واحد منهما لكن جعل في عرف الشرع لترك التسرع الى تناول أعراض الدنيا وذلك على ثلاثة أضرب واجب وهو الاحجام عن المحارم وذلك للناس كافة وندب وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للاواسط وفضيلة وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد قال صلى الله عليه وسلم لايكون العبد من الصالحين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس وقال باعتبار المنزل الثانى لما قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ماأيسر الورع اذا شككت فى شئ فدعه

(الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية)

(الباب الاول مايتبع من القوي الغضبية)

الحمية قوة الغضب متي تحركت محرك دم القلب فتولد منه ثلاثة أحوال وذلك لانها اما تتحرك على من فوقه أو على من دونه أو نظيره فان كان ذلك على من فوقه ممن يظن انه لاسبيل له الي الانتقام تولد منه انقباض الدم وذلك هو الجزع وان كان على من دونه ممن يظن أن له سبيلا الى الانتقام منه تولد منه انقباض الدم وتردده بين الانقباض والانبساط وذلك هو الحقد ولكون الغضب والغم بالذات واحدا واختلافهما بالاضافة سئل ابن عباس رضى الله تعالى عنه فقال مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع قادرا عليه أظهره غضبا ومن نازع من لايقوى عليه كتمه حزنا ومنه قول الشاعر

* فحزن كل أخى حزن أخو الغضب * والانبساط دم القلب الحقد يحمى وجهه تارة وذلك اذا كثر واشتد غضبه كنار في فار فيسود وجهه ولانقباض دم الجزع عن ظاهر الجلد واجتماعه فى القلب يصفر وجهه حتى ربما يهلك من ذلك والتردد دم الحقد بين هذه الاحوال يحمر ويصفر ويسود والحرد هو الغضب لكن يستعمل اذا كان معه قصد المغضوب عليه ولذلك يقال حرد حرد الاسد

(الباب الثاني فى أنواع الصبر ومدحه)

الصبر ضربان جسمى ونفسى فالجسمى هو تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ونهايته المملومة وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة وليس ذلك لفضيلة تامة قال

والصبر بالارواح يعرف فضله * صبر الملوك وليس بالاجسام

وذلك فى الفعل كالمشى ودفع الحجر وفى الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الصرف والقطع والثانى نفسىّ وبه تعلق الفضيلة وذلك ضربان صبر عن تناول مشتهى ويقال له العفة وصبر على تحمل مكروه أومحبوب وذلك تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه فاذا كان ذلك فى نزول مصيبة فانه مما استعد به اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع والحزن وان كان في احتمال غني فقد سمي ضبط النفس ويضاده (٢) الدقع والبطر وان كان في محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان في امساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلما ويضاده التذمر وان كان فى نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان فى امساك كلام فى الضمير سمى كتمان السر ويضاده الافشاء وان كان في الامساك عن فضولات العيش سمى قناعة وزهدا وهذا يضاده الحرص والشره ولكون الصبر عاما قال عز وجل والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس فذكر انهم يصبرون فى البأساء أى الفقر وفي الضراء أى المصيبة وحين البأس أى المحاربة قال بعضهم يقال ضبط النفس فى الاشياء الملذة والصبر يقال في الاشياء المحزنة وقال بعضهم بل هما من الاسماء المترادفة على معنى واحد * ان قيل ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان قيل لما كان جميع المحامد ضربين ترك شر ويعبر عنه بالصبر وفعل خير ويعبر عنه بالشكر صار الصبر الذى هو ترك الشر نصف الايمان

﴿ باب الثالث في الشجاعة ﴾

الشجاعة ان اعتبرت وهي من النفس فصرامة القلب على الاهوال وربط

---

(٢) قوله الدقع محركة سوء احتمال الغنى والبطر سوء احتمال الفقر اهـ قاموس

الجأش في المخاوف وان اعتبرت بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة وهى فضيلة بين التهور و الجبن وتولدها من الغضب والفزع اذا كانا متوسطين فان الغضب قد يكون مفرطا كمن يحتدم سريعا من أشياء صغيرة وقد يكون مفرطا كمن لا يغضب على حرمه وشتم أبيه وأمه وقد يكون متوسطا على مايجب فى وقت مايجب ويقدر مايجب وكذلك الفزع يكون مفرطا فيتولد منه الجبن الهالع ومفرطا فيتولد منه الوقاحة والغمارة كمن لا يفزع من شتم أبيه وتضييع حرمه وأصدقائه وقد يكون متوسطا كما يجب وبقدر مايجب ولكونهما أعنى الغضب والفزع على حالتين محمودة ومذمومة صارا يحمدان تارة ويذمان تارة فان الغضب في نحو قوله عز وجل وغضب الله عليهم والفزع في نحو قول الشاعر

* غضبت لظلمه اله محموداں والتهور هو الثبات المذمومة فى الامور المعطبة وأنواع الشجاعة حسه سبعية كمن أقدم لثور ان غضب وتطلب غلبة وبهيمية كمن حارب توصلا الى مأكل أو منكح وتجريبية كمن حارب مرارا فظفر فجعل ذلك أصلا يبنى عليه وجهادية كمن يحارب ذبا عن الدين وحكمية وهى ماتكون فى كل ذلك عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر مايجب على مايجب ألا ترى كيف يحمد من أقدم على كافر غضبا لدين الله أو طمعا في ثوابه وخوفا من عقابه أو اعتمادا على ماراًى من انجاز الله تعالي وعده فى نصرة أوليائه فان كل ذلك محمود وان كان محض الشجاعة أن لا يقصد بالاقدام حوز ثواب ودفع عقاب فقد قيل من عبد لله بعوض فهو لئيم والفرق بين المقدم فى الحرب لمحض الحكمة واخلاص الدين وبين المقدم لغير ذلك ان المقدم لغير الحكمة والاخلاص يخاف الموت أكثر مما يخاف المذمة والمقدم للحكمة والاخلاص بالضد من ذلك فانه يختار الموت الحميد على الحياة الذميمة ولذلك قال على رضى الله تعالى عنه أيها الناس ان لم تقتلوا تموتوا والذى نفس ابن أبى طالب بيده لالف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش ومن الشجاعة المحمودة مجاهدة الانسان نفسه أوغيره وكل واحدة منهما ضربان مجاهدة النفس بالقول وذلك

بالتعلم وبالفعل وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية ومجاهدة العين بالقول وذلك بتعيين الحق وتعليمه وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب

﴿ الباب الرابع في أسماء أنواع الفزع والفرق بينهما وما يحمد منهما ويذم ﴾

الفزع والجزع اخوان لكن الفزع مايعترى الانسان من الشئ الخفيق والجزع مايعترى من الشئ المؤلم والفزع لفظ عام سواء كان عارضا عن أمارة أودلالة ومتى كان عن شئ يضر فهوالفرق والذعر ومتى كان الخوف محبوبا فهو الاشفاق ولهذا قال تعالي حكاية عن أهل الجنة انا كنا قبل في أهلنا مشفقين والخوف توقع مكروه عن امارة والخشية خوف يشوبه تعظيم المخشى مع المعرفة به ولذلك قال تعالى من خشى الرحمن بالغيب والوجل استشعار عن خاطر غير ظاهر ليس له أمان قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة الآية والرهبة مع تحرز واضطراب لتضمن الاحتراز قال تعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون والهيبة وهي جالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ولذلك يستعمل فى كل محتشم قال الشاعر

أهابك اجلالا وما بك قدرة * علىّ ولكن ملء عين حبيبها

وهذه الاشياء قد تذم باعتبار الامور الدنيوية وتحمد باعتبار الامور الاخروية قال الله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وقال واياى فارهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء والخوف من الله تعالي ليس يشار به الى مايخطر في البال من الرعب كاستشعار الانسان الرعب من الاسد وانما يشار به الى مايقتضيه الخوف وهو الكف عن المعاصى ولذلك قيل لاتعدن خائفا من لايترك الذنوب وقال تعالي انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه أى لاتفعلوا مايقتضيه الخوف منه وافعلوا مايقتضيه خوفى * ان قيل كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون * قيل أما الممدوح فهو مقتضاها وذلك باقامة العبادات وأما المنفيان عنهما فهما اللذان يكونان من الاشرار

(الباب الخامس مداواة الغم وازالة الخوف)

حق الانسان أن يعلم ان الدنيا جمة المصائب رنقة المشارب تثمر للبرية أضعاف البلية فيها مع كل لقمة غصة ومع كل جرعة شرقة فهي عدوة ومحبوبة كما قال أبو نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

وكما روى عن الحسن أنه قال مامثلنا مع الدنيا الا كما قال كثير

أسيئي بنا أو أحسني لاملومة * لدينا ولا مقلية ان تقلت

فما أحد فيها الا وهو فى كل حال غرض لاسهم ثلثه سهم بلية وثلثه سهم رزية وثلثه سهم منية

تناضله الآفات من كل جانب * فتخطاه يوما ويوما تصيبه

وقال بعض الحكماء أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب ولا يسلم منهما انسان لان الثبات والدوام معدومان فى عالم الكون والفساد فمن أحب ان يعيش هو واهله وأحبابه فهو غير عاقل لانه يريد ان يملك مالا يملك ويوجد له مالا يوجد فحق المرء أن يخلي قلبه من اعتبار ما يرى من الارتجاع لودائعها من أربابها وحلول توادعها بأصحابها وما أحسن قول ابن الرومي

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه * كفاحا اذا فكرت في الخلوات

فمالك كالمرمى من نائل له * بنبل أتته غير مرتقبات

فان فات مكروه أتى لجأة به * فما فوجئت نفس مع الخطرات

ولا عوقبت نفس بسلوى وقدرأت * عظات أتتها ثم بعد عظات

اذا بعثت أشياء قدكان مثلها * قديما فلا تعتدها بغتات

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن فقد قيل لحكيم لم لا تغتم فقال لانى لم أقتن ما يغمني فقده فقد أخذه من قول الشاعر حيث قال

فمن سره أن لايرى ما يسوؤه * فلا يتخذ شيأ يخاف له فقدا

وقيل لحكيم هل للانسان أن يعيش آمنا قال نعم اذا احترس من الخطيئة وقنع

بحلاله ولم يحزن لما هو واقع به لامحالة واعلم أن الجزع على ما فات لايلد مايشعث ولا يبرم ما انتكث كما قال * وهل جزع حد علىّ فاجزعا * فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه اما في شئ ممتنع كونه أو واجب كونه أو ممكن كونه فان كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء وكذلك اذا كان من قبل الواجب كونه كالموت الذى هو حتم في رقاب العباد وان كان ممكنا كونه فان كان من الممكن الذى لاسبيل الى دفاعه كمكان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل واستجلاب غم الى غم وان كان من الممكن الذى يصح دفعه فالوجه أن يحتال الى دفاعه بفعل غير مشوب بحزن فان دفعه والا تلقاه بصبر وليحقق قوله عزّ وجل ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم فمن علم ان ما جرى فى حكمه وسبق في علمه لاسبيل الى أن لايكون هانت عليه النوب واعلم ان الذى يغر الناس حسن ظنهم باغترار الآفات واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الاوقات ولو تأملوها لتحققوا انها كما قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ما قال الناس لقوم طوبى لكم الا وقد خبأ الدهر لهم يوم سوء شعر

ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت اليه بعد احسان

وأما سبب الاغتمام بالموت فلا ينفك من أربعة أوجه اما لشهوة بطنه وفرجه أن تفوت واما على ما يخلفه من ماله واما على جهله بماله واما خوفا مما قدمه من عصيانه فان كان ذلك لخوفه على شهوة بطنه وفرجه أن تفوت فليعلم ان ذلك كمثله داء ليقابله بداء مثله فان الانسان لايستلذ بالطعام حتى يجوع والجوع داء مهروب منه وشبعه داء مهروب منه فمثل من يحب الجوع ليستطيب بعده الاكل كمن يستطيب القعود في الشمس ليلذ له الحر ثم يستطيب القعود في الظل فمحبة ذلك رقاعة لاتحد ولاتعد وان كان ذلك على ما يخلفه من ماله فذلك لجهله بخساسة الاعراض الدنيوية وكونها تجمع كل بلية وبنفاسة الاملاك الحقيقية التى وعد المتقون بها وان كان لجهله بماله فلعدم مداولته العلم والمعرفة الحقيقية التي تريه حال ما للانسان بعد الموت كما قال حارثة للنبي صلي الله عليه

وسلم كأني أنظر الى عرش ربي بارزا وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون والى أهل النار يتعاوون فيها وان كان خوفا لما قدمه من عصيانه فدواؤه المبادرة بالتوبة وكفاه ان كان ذا بصيرة ما جعله الله له سبيلا من تدارك ما فرط منه وما وعد التائبون

﴿ الباب السادس في أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به ﴾

الناس في ذلك على ثلاثة أضرب الاول حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه وان الانسان في هذا العالم وان طال فيه لبثه فهو لحظة برق لمعت في آفاق السماء ثم عادت الاختفاء وانه في دنياه كمبعوث الى ثغر يحوطه وبلد يسوسه يراعي ما استرعى ويسر بدعائه اذا دعي ولا يكاد يود خروجه منها الا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد من تقربه والاشفاق مما يقول ويقال له كما قال بعض الصالحين وقد رؤي منه جزع عند الموت فقال جزعي ان أسلك طريقا لم أعهده وأقدم على رب لم أره ولم أدر ما أقول وما يقال لي والثاني رجل الف هذا العالم وان كرهه فسبيله سبيل من ألف بيتا مظلما قذرا ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه وان كان قد كره دخوله فيه كما قال

دخلنا كارهين لها فلما ❊ ألفناها خرجنا مكرهينا

وما حب البلاد بنا ولكن ❊ أمر العيش فرقة من هوينا

وحق ما قيل لو رضي الناس بأرزاقهم رضاهم بأوطانهم لما شكا أحد فقره فهذا متى خرج من دنياه واطلع على ما أعد للصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر سر بخلاصه كما حكى الله سبحانه وتعالى عمن استقر به القرار في جنة النعيم حيث قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور والثالث رجل أعمى البصيرة متلطخ السريرة عما ارتكبه من أنواع الجريمة رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ويئس من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور فاذا خرج منها الي دار الخلود أضر ذلك به ❊ كما تضر

ورياح الورد بالجعل فاذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم الملا فى مصاحبة الملأ الأعلى ومنادمة أولى الملا فيعمى كما قال تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى ولهذا قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فان من تربى فى هذا العالم بغذائه من العلم والعمل الصالح جدير بأن لايشتاق اليه بعد خروجه منه وان خرج كارها كما لايشتاق الى بطن أمه بعد الخروج منه ويدلك على انه خرج من بطن أمه كارها بكاؤه قال بعض العلماء أول ما يسئل الصبي عن غمه عند سقوطه لما يضغطه من مضيق خروجه ويصيبه من ألم الهواء فيتوجع والوجع يورثه الغم والغم يحمله على البكاء وقال ان للصبي كل مايكون للحيوان غير التعلق بالالم واللذة والجوع والعطش وقال ابن الرومى

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها * لافسح مما كان فيه وأرغد

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مامن أحد الا والموت خير له من الحياة لان الله تعالى قال في الاخيار وما عند الله خير للابرار وقال فى الاشرار انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقيل الصالح اذا مات استراح من الدنيا والطالح اذا مات استراحت منه الدنيا قال بعض الصالحين من قال لغيره صانك الله من نوب الايام وصروف الزمان فانه يدعو عليه بالموت لان الانسان لاينجو من ذلك الا بعد خروجه من دار الكون والفساد وقال بعض الصوفية حق ملك الموت أن يحبه المسلم من بين الملائكة فانه يفصل حياته الابدية من حياته البدنية ولهذا أمرنا أن نقول فى دعائنا اللهم صل على جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وان جبريل وميكائيل سبب لانبائنا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد فاذن حقه عظيم وشكره لازم وقد حكى أن قوما من الاوائل كانوا يعظمون زحل وقالوا انه لايعين على الحياة العرضية بل هو سبب انقاذنا من الدنيا الدنية وقال بعض الاولياء في مناجاته الهى ان سألتك الحياة فى دار الممات

فقد رغبت فى البعد عنك وزهدت فى القرب منك فقد قال نبيك وصفيك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه وقال بعضهم ان كان فى قلة الحياة الدنيوية غنى ففى انقطاع الحاجة كلها الغنى الاكبر ولا انقطاع لها الا بمفارقة الدنيا التى هى سبب فاقتنا والعبودية لغير الله تعالى وقبيح بالعاقل محبة الفاقة والتخصص بعبودية غير رب العزة والموت سبب نقص ذلك الانسان ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم ومن كره الموت أخرج من الدنيا كارها فيكون كعبد آبق رد الي مولاه مأسورا وقيد الى حضرته مقهورا وشتان مابين عبد دعاه مولاه فأتاه طوعا وعبد آبق أسر فأتي به قسرا وحق العاقل أن يكثر من ذكر الموت فذكره للموت لايقرب أجله ويفيده تلقي القناعة بما رزق والمبادرة بالتوبة والنشاط في العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هادم اللذات فانه ماذكره أحد وكان فى ضيق الا وسعه عليه ولا فى سعة الا ضيقها عليه وقيل ذكر الموت يطرد فضول الامل ويكف عرق المنى فيهون المصائب ويحول بين الانسان والطغيان

الباب السابع فى السرور والفرح

السرور انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلا و آجلا وذلك فى الحقيقة لايكون الا اذا لم يخف زواله ولا يكون الا فى القنيات الاخروية ولذلك قيل لاسرور في الدنيا على الحقيقة والفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة وذلك في اللذات البدنية الدنيويه ولهذا قال عز وجل لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والفرح يدعو الى النشاط والنشاط الى المرح والمرح الى الاشر والاشر مقدمة البطر وأكثر مايحدث ذلك فى الاحداث والصبيان بقدر مايغلب عليهم من الغفلة وقد ذمه الله سبحانه وتعالي بقوله وفرحوا بالحياة الدنيا وقال ان الله لايحب الفرحين وقال تعالى ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وقال تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وقد يسمى الفرح سرورا والسرور فرحا لكن على نظر من لايعتبر

الحقائق ويتصور أحدهما بصورة الآخر ولذلك قيل من طلب السرور كان خارجا منه لم ينله

﴿ الباب الثامن في العذر والتوبة ﴾

المذنب اذا عوتب أو خاف العتب لاينفك عن وجهين اما أن يكون مصرا أو معتذرا فأما المصر فقد يستحسن في بعض الاحوال التجافي عنه وقد سمع رجل حكيما يقول ذنب الاصرار أولى بالاعتفاء فقال صدق ليس فضل من عفا عن السهو القليل كفضل من عفا عن العمد الجليل وأما المعتذر فهو المظهر لما يمحو به الذنب وجميع المعاذير لاتنفك عن ثلاثة أوجه اما أن يقول لم أفعل أو يقول فعلت لاجل كذا فيبين مايخرجه عن كونه ذنبا أو يقول فعلت ولا أعود فمن أنكر وأنبأ عن كذب مانسب اليه فقد برئت ساحته وان فعل وجحد فقد يعد التغابي كرما واياه قصد الشاعر بقوله

تغابى وما بك من غفلة * لفرط الحياء وفضل الكرم

ومن اقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك قال بعض البلغاء تجاوز عن مذنب لم يسلك بالاقرار طريقا حتى أخذ من رجائك رفيقا وان قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة والانسان حقه أن يقتدى بالله في قبولها* وللتوبة شرائط فرضا ونفلا ففرضها ترك الذنب مع عدم العود اليه ونفلها التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان واعلم ان للمذنب التائب اذا تاب توبة نصوحا فضيلة على من لم يذنب من ثلاثة أوجه الاول لانه جرب العيوب والذنوب وعرف مداخل الشيطان على الانسان فيكون أهدى الى الاحتراز فقد قيل لحكيم فلان لايعرف الشر فقال ذاك أجدر أن يقع فيه والثانى أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتى مولاه خزيانا منكسرا ومن لم يذنب ربما يعجب بنفسه ويدل بفعله وليس خدمة عبد عصى ملكا وخرج عليه خارجيا ثم عاد اليه وجلا فتجوفى عنه كخدمة مدل بطاعته والثالث ان التائب جلب الدهر بشطريه خيره وشره

وحلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين وأوفق لهم وأصلح للرياسة ممن يظن ان الذنب خارج عن الطبيعة الانسانية فيعجب بنفسه ويزرى بغيره

﴿ الباب التاسع في الحلم والعفو ﴾

الحلم امساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم امساكها عن قضاء الوطر منه اذ هاج ولما كان الحلم عن تأثير العقل وغير منفك عنه صار يعبر به عن كل عقل ظهر فعلا كقوله عز وجل فى ذم الكفار على سبيل التعجب منهم أم تأمرهم أحلامهم بهذا ومتى استعمل الحلم في البارئ تعالى فانما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له ولن يتم حلم الانسان الا بامساك الجوارح كلها اليد عن البطش واللسان عن الفحش والعين عن فضولات النظر والغروب لفظ يستعمل فى ضد الحلم التذمر وأما العفو والصفح فهما صورتا الحلم ومخرجاه الى الجود فالعفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح ترك التثريب واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوبه أى الاعراض بصفحة الوجه عن التلفت الى مكان منه وهو محمود اذا كان على الوجه الذى يجب فقد قال تعالي فاصفح الصفح الجميل لحض تنبيها علي مايحمل منه وقد حث الله تعالي على ذلك بقوله والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس فأمر بالحلم والعفو وقال تعالى وليعفوا وليصفحوا وقال تعالى فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين وقال فمن عفا وأصلح فأجره علي الله والعفو انما يستحب فيما اذا كانت الاساءة مخصوصة بالعافى كمن أخذ ماله أو شتم عرضه فأما اذا كانت الاساءة عائدة بالضرر على الشرع أو على جماعة الناس فانه ان كان فيها أدني شبهة فللسلطان العفو لقوله صلى الله عليه وسلم ادرؤا الحدود بالشبهات فان لم تكن ذات شبهة فليس عفوا ولذلك قال الله تعالى في الزنا ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وحق المعاقب أن لايكون سبعا في انتقامه بل لايعاقب حتى يزول سلطان غضبه لئلا يقدم على ماليس بواجب ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر فى جرمه ويعيد النظر فيه قال بعضهم ينبغي

السلطان أن يؤخر العقوبة حتى ينقضي سلطان غضبه ويعجل مكافأة المحسن ويستعمل الاناة فيما يحدث فتأخير العقوبة فيه امكان العفو ان أحب ذلك وفي تعجيل المكافأة بالاحسان مسارعة الاولياء الى الطاعة أتى الاسكندر بمذنب فصفح عنه فقال بعض جلسائه لو كنت اياك لقتلته فقال فاذا لم أكن أنا اياك ولا أنت اياي فكيف قتله وانتهى الي بعض أصحابه فوجده يغتابه فقال بعض جلسائه لو أنهكته عقوبة فقال اذن أبسط عذرا ولسانا في اغتيابي واعلم ان لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ولذة التشفي يلحقها ذم الندم والعقوبة ألأم حالات ذي القدرة وهي طرف من الجزع ومن رضي أن لا يكون بينه وبين الظالم الا ستر رقيق فلينتصف وقد نبه الله تعالى على ذلك بلطيف من المقال فقال وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى مجازاة المسيء باساءته اساءة وقال تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فسمى المجازى على الاعتداء معتديا تنبيها على أنه قد كاد يكون اياه والعقوبات بين الناس أقبحها ما كان فيما لم يظهر بالفعل فقد قال بعض الملوك انما نملك الاجساد دون الضمائر ونفحص عن الظواهر لاعن السرائر ثم من سلم ظاهره احتمل جرائمه فقد يهفو المرء وآيته سليمة ويزول وطريقته مستقيمة

(الباب العاشر في ثوران الغضب وفضل كظمه)

الغضب بمنزلة نار مايشتعل والناس يختلفون فيه فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضى بطيء الخمود بطيء الوقود وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وبعضهم بعكس ذلك وهو أحمدهم مالم يكن مفضيا به الى زوال حميته وفقدان غيرته واختلافهم تارة يكون بحسب الامزجة فمن كان طبعه حارا يابسا يكثر غضبه ومن يكون بخلافه يقل وتارة يكون باختلاف المادة في الناس من تعود السكون والهدو وهو المعبر عنه بالذلول والهين واللين ومنهم من تعود الانزعاج والطيش فيحتد بأدنى مايطرقه كالكلب يسمع صوتا فينبح قبل

أن يعرف ماهو وأكثر الناس غضبا الصبيان والنساء وأكثرهم ضجرا الشيوخ وأجل الناس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ وعلى ذلك دل قوله عز وجل والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وقال عليه الصلاة والسلام وقد مر بقوم يرفعون حجرا ألا أخبركم بأشدكم من ملك نفسه عند الغضب واعلم أن نار الغضب متى كانت عتيقة تأججت واضطرمت واحتد منه غليان الدم في القلب وامتلات الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ويضعف به فعله فكما أن الكهف الضيق اذا ملئ حريقا اختنق فيه اللهب والدخان وعلا منه الاجيج فيصعب علاجه واطفاؤه ويصير كل مايدنو منه مادة لقوته وكذلك النفس اذا اشتعلت غضبا عميت عن الرشد وصمت عن الموعظة فتصير مواعظه مادة لغضبه ولهذا حكي عن ابليس انه قال متى أعجزني ابن آدم فليس يعجزني اذا غضب فانه ينقاد لي في كل ماأبتغيه ويعمل بما أريده وأبتغيه وقيل الغضب حزن ساعة وربما أدي الي تلف وهو اختناق حرارة في القلب وربما كان سببا لامراض صعبة مؤدية الى التلف وأسباب العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والضيم والاستهزاء وطلب مافيه التنافس وشهوة الانتقام وحق من اعترته غضبته أن يتفكر فان كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته اذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجأش فان كان غضبه على من لا سبيل له فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل بالواجب وقال حكيم سطوة الغضب قبل تلهب ناره في لحمك ودمك فانما يمكن اطفاؤها قبل انتشارها فأما اذا انتشرت فلا سبيل الى اطفائها وقال سلطان لحكيم كيف لى أن لاأغضب فقال بأن تكون كل وقت ذاكرا انه يجب أن تطيع لاأن تطاع فقط وان تخدم لاأن تخدم فقط وان تحمل لاأن تحمل فقط وأن تتحقق بأن الله تعالى يراك دائما فاذا فعلت ذلك لم تغضب وان غضبت غضبت قليلا

﴿ الباب الحادى عشر في الغيرة والجوار ﴾

الغيرة ثوران الغضب حماية على اكرام الحرم وأكثر مايراعى في الحرم النساء وجعل الله سبحانه هذه القوة في الانسان سببا لصيانة الماء وحفظا للانساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها وقد يستعمل ذلك في صيانة كل مايلزم الانسان صيانته في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه وسياسة منزله وأهله وسياسة مدينته وضيعته ولذلك قيل ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل مختص به وقيل الغيرة الذب عن كل ضعيف وتسمى كراهة النعمة عند من لايستحقها غيرة والغيرة وان كانت قوة السائية فواجب كونها في كل جيل فقد كثرت فى العرب حتي ان من دخل دار أحدهم والتجأ الى فنائه عدوا فعله حرمة وجوارا وذمارا بل ان تعلق ذلك بالوحشيات والهوام حتي كان يسمون بذلك مجير الجراد ومجير الغزال ومجير الذئب وسمى الغضب المقتضي للغيرة الحفيظة فقالوا أحفظني فلان أى أغضبني الغضب الذى أثار مني قوة الحفظ

(الباب الثانى عشر في الغبطة والمنافسة والحسد)

الذي ينال الانسان بسبب خير يصل الى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله هو الغبطة وان كان في ذلك سعى منه في أن يبلغ هو مثله من ذلك الخير أو مافوقه فمنافسة وكلاهما محمود وان كان مع ذلك يتمنى زوال مايصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد والحسد تمنى زوال نعمة مستحقة من غير أن يكون طالبا ذلك لنفسه ولذلك قيل الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه قال صلى الله عليه وسلم المؤمن يغبط والمنافق يحسد فحمد الغبطة وقال تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون فحثنا على التنافس اذ هو الباعث لنا على طلب المحاسن وذلك كقوله تعالي سابقوا الى مغفرة من ربكم وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة لاينجو منها أحد الظن والطيرة والحسد وسأخبركم بالمخرج من ذلك اذا ظننت فلاتحقق واذا تطيرت فامض ولا تستثن واذا حسدت فلا تبغ أى اذا أصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ ازالته عنه واعلم أن الحسد من وجه غاية البخل

لان الحاسد يبخل بمال الله والبخيل بمال نفسه ولذلك قيل الحاسد بخيل بمالا يملكه ومن وجه هو أظلم ظالم لانه يظلم غيره في ازالة حاله ويظلم ربه فيما قدره وقيل الحسد والحرص ركنا الذنوب ومنه نتج ذنب ابليس وآدم فابليس حسد آدم فصار لعينا وآدم حرص على مانهي عنه فأخرج من الجنة فهما شجرتان تجتنى منهما سائر الرذائل فمن قطع أسبابهما نجا * ان قيل ماوجه قول النبي صلى الله عليه وسلم لاحسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فجعله في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها قيل عنى بالحسد ههنا الغبطة وقد تسمى بالحسد من حيث انهما الغم الذى ينال الانسان من خير يناله غيره ولا يناله هو وعلى ذلك يقول الانسان لولده لاتحسد فلانا فيما يتعلمه أى لاتتمن حاله واعلم أن الحسد ضرب من الحماقة لان اغتمامه بما يناله ذووه وأهل بلده يقتضي أنه ربما يغم بما يناله أهل الصين والهند على ان الخير الذى يناله ذووه وأقاربه هو أنفع له مما يناله الاباعد

﴿ الفصل الخامس في العدالة والظلم والمحبة والبغض ﴾

﴿ الباب الاول في ذكر العدالة وفضيلتها ﴾

العدالة لفظ يقتضي ذكر المساواة ولا يستعمل الا بالاعتبار الاضافة وهي في التعارف اذا اعتبرت بالقوة هيئة في الانسان يطلب بها المساواة واذا اعتبرت بالفعل فهي القسط القائم على الاستواء واذا وصف الله تعالي بالعدل فليس يراد به الهيئة وانما يراد به ان أفعاله واقعة على نهاية الانتظام والانسان في تحرى فعل العدالة يكون تام الفضيلة اذا حصل مع فعله هيئة متنزه لتعاطيه وقد يقع فعل العدالة من الانسان ولا يكون ممدوحا به نحو أن يقسط مراآة أو توصلا الى نفع دنيوى أوخوف عقوبة السلطان والعدالة تارة يقال هي الفضائل كلها من حيث لايخرج شئ من الفضائل عنها وتارة يقال هى أجل الفضائل من ان صاحبها يقدر أن يستعملها في نفسه وفي غيره وهى ميزان الله المبرأ من كل زلة وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله عز وجل الله الذى أنزل الكتاب

بالحق والميزان وقال والسماء رفعها ووضع الميزان وعبر عن العدالة بالميزان اذ كان من أثرها ومن أظهر أفعالها للحاسة وقال النبي صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السماء والارض أى لو كان شئ من موجودات العالم وأصولها زائدا على الآخر أو ناقصا عنه لم يكن منتظما هذا النظام ومن فضله أن الجور الذى هو ضده لايتسبب الا به فلو أن لصوصا تشارطوا فيما بينهم شرطا فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم ومن فضلها ان كل نفس تتلذذ بسماعها وتتألم من ضدها ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره اذا رآه أو سمع به وقيل العدل اتحاف الله أي من حيث العدالة لاخوف عليه ولحسن العدلة والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مركبا فى العالم ليس له نظام فيكره العرج والعور ويتشاءم به ولتحرى المساواة جعل الله أعضاء الانسان الواقعة فى الاطراف زوجين اثنين وفي الاوساط واحدا وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بازاء كل منقوش في جانب منقوشا مثله في الآخر لئلا تصير الصورة معوجة العدلة وسط أطرافها كلها جور فالجور الخروج من وسط بزيادة أو نقصان ولذلك صار الجور والخطأ بالاضافة الى العدل والصواب من حيز مالا نهاية له والعدل والصواب من حيز المتناهي وادرا كهما صعب عسر ولصعوبة ذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا وتمدح سبحانه وتعالى بقوله وأحصى كل شئ عددا تنبيها على انه المتحقق بالعدالة والصواب من كل شئ وقال بعض الصوفية رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت له يارسول الله بلغنى أنك قلت شيبتني سورة هود وأخواتها فما الذى شيبك منها قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولما كانت طريق الوصول عسرة صار طالبها اذا تحراها بجهده وان أخطأ فيها معذورا بل مأجورا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران

﴿ الباب الثانى في أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه ﴾

العدل ضربان عدل مطلق يقتضي العقل حسنه ولا يكون منسوخا في شئ

من الازمنة ولا يوصف بالجور في حال وذلك جذب الاحسان الى من أحسن اليك وكف الاذية عمن كف أذاه عنك وعدل مقيد يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن أن يكون منسوخا في بعض الازمنة وذلك مقابلة السوء بمثله كأحوال القصاص وأرش الجنايات وأخذ مال المرتد وهذا النحو يصح أن يوصف على المجاز في بعض الاحوال بالجور ولذلك قال عز وجل وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث انه لولم يكن معتبرا بالسيئة المتقدمة كانت هي سيئة وعلى ذلك أن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وبالنظر الى النوع الاول والاعتبار به قال بعض المتكلمين يعرف العدل والجور بالعقل قبل الشرع وبالنظر الى الاول والاعتبار به قال بعضهم لا يعرف الا بالشرع وبالجملة ان الشرع مجمع العدالة وبه تعرف حقائقها ولو توهمناه مرتفعا لكان يؤدى الى أن لا يكون عدالة على الحقيقة في شئ من جزئيات الافعال ولا يكون في كثير من كلياتها والعدالة المحمودة هي التى تحرى لا لرياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة وانما تكون عن تحر للحق عن سجية والذى يجب أن يستعمل الانسان معه العدالة خمسة الاول بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه والثانى بين قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلما لعقله فقد قيل أعدل الناس من أنصف عقله من هواه والثالث بينه وبين أسلافه الماضين فى انفاذ وصاياهم والدعاء لهم والرابع بينه وبين معاملته من أداء الحقوق والانصاف في المعاملات من المبايعات والمقارضات والكرامات والخامس بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم وذلك الى الولاة وخلفائهم وأما أحكام العدل فى الارض فثلاثة حاكم من الله تعالى وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والعامل والآمر به وهو كل وال عدل والناض المعتبر به وأعلاه الدينار ومعناه بالفارسية الدين آورده والناض من وجه كالحاكم ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر اذا قيس عمل بعمل ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع من انتظامها والتزامها أظلم ظالم ولهذا قال عز وجل فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل

الناس بغير علم ان الله لايهدى القوم الظالمين ولكون الكفر ظلما قال عز وجل ونزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا فقابل المؤمن بالظالم

﴿ الباب الثالث فيما يحسن ترك العدالة فيه ﴾

ترك العدالة أى الظلم عمدا مذموم فى جميع الاحوال والخارج منها الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطا من الله عز وجل الا أن يتغمده الله تعالى بعفوه وأما الخارج عنها الى الانظلام أى التزام الظلم فقد يحمد والانظلام من حيث الكمية ثلاثة أضرب انظلام فى المال وهو الاستخذاء للظالم في أخذ ماله وانظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم وانظلام في النفس وهو استخذاء لمن يؤمله وكل واحد يكون محمودا ومذموما ومن حيث الكيفية ضربان محمود ومذموم فالمحمود التغابن فى حق له في المال أوفى الكرامة أو فى النفس بقدر مايحس وهو المعبر عنه بالانخداع والتغافل الذى فيه العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل واياه قصد معاوية رضي الله تعالى عنه بقوله من خدعك فانخدعت له فقد خدعته وقال الشاعر

* من يغر على الثناء ينخدع * وذلك اذا كان فى المال فسماحة واذا كان فى النفس فعفو واذا كان في الكرامة فتواضع وأما على الوجه المذموم ففى المال والرأى غبن وفى النفس والكرامة هوان ومذلة وقد تقدم أن الاحسان والافضال أشرف من العدالة اذا كان الحكم بينك وبين غيرك وأما اذا حكمت بين اثنين فليس الا العدالة وانما الاحسان الى المتحاكمين ولهذا قال تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل وقال فيمن له الحق وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال يحيى بن معاذ اصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل فغاية العدل الاستقصاء وانى لارجو أن لايحاسب عباده بالعدل وقد أمرهم أن يعامل بعضهم بعضا بالفضل وقد عظم الله تعالى أمر الافضال والاحسان فقال للذين أحسنوا الحسنى

وزيادة قال وهل يأمر الحكيم بأمر ثم لا يفعله وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدالة وقد بين ان التفضل أفضل وكيف لا يرجى فضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل لانه مبتدئ بما لا يلزمه والابتداء بما لا يلزم تفضل وهل يجوز أن يترك التفضل اشياء وقد تحراه

﴿ الباب الرابع فى ذكر الظلم ﴾

الظلم هو الانحراف عن العدالة ولذلك حد بأنه وضع الشئ فى غير موضعه المخصوص وقد تقدم ان العدالة تجرى مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الافراط العدوان والطغيان واليه أشار تعالى بقوله قد ضلوا ضلالا بعيدا والانحراف عنها فى بعض جوانبها جور والظلم أعم الاسماء ولما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدل عنها اما بعيدا واما قريبا فمن كان عنه أبعد كان رجوعه اليه أصعب ولذلك قال عز وجل ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا تنبيها على انه متى أمعن بهم في البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء ولا حل من جعلهم الشيطان كذلك قال تعالى أولئك ينادون من مكان بعيد وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة وهم الذين يجب أن نستعمل العدالة معهم وقد تقدم ذكرهم الاول رب العزة سبحانه الثانى قوى النفس الثالث اسلاف الرجل الرابع معاملوه من الاحياء الخامس الناس اذا تولى انسان الحكم بين بعضهم بعضا وقال بعض العلماء شر الناس من جار على نفسه ثم من جار على ذويه ثم من جار على كافة الناس وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ثم مع عشيرته ثم مع نفسه وهذا قول أورد نظر عامى فان الظالم لا يكون ظالما لغيره حتى يكون ظالما لنفسه فانه أول مايهم بالظلم فقد ظلم نفسه فاذن الظالم أبدا مبتدئ بنفسه بالظلم والعادل فى الناس اذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره قال بعضهم الظلمة ثلاثة الظالم الاعظم وهو الذى لا يدخل تحت شريعة الله تعالى واياه قصد تعالى بقوله ان الشرك لظلم عظيم والاوسط وهو الذى لا يدخل تحت حكم السلطان والاصغر وهو

الذي يتعطل عن المكاسب والاعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة ومن خرج عن تعاطى العدالة بالطبع والخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ من الانسانية ومتى صار أهل ٢ صقع كلهم كذلك تهارشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر قبول فقد تقدم أن عادة الله في أمثالهم اهلاكهم عن آخرهم

﴿ الباب الخامس في الاسباب التي يحصل منها الاضرار ﴾

جميع ذلك أربعة أسباب الاول الشرارة كمن يضر بغيره مستلذا بنفعه وذلك أخس الوجوه الثاني الشهوة وهي أن يرى انه لايمكنه ادراك شهوته الا بأن يضر غيره كعامة المتلصصة العاتين في الارض الثالث الخطأ وهو أن لايقصد الاضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعلا آخر فاتفق منه ذلك كمن رمى قرطاسا فأصاب رجلا فهو معذور من وجه الرابع الشقاوة كمن أصابه ريح فأوقعه على انسان فمات ذلك الانسان فذلك معذور ومرحوم

﴿ الباب السادس في ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ﴾

المكر والخديعة يتقاربان وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف مايقتضيه ظاهره وهو ضربان أحدهما مذموم وهو الاشهر عند الناس والاكثر وذلك أن يقصد فاعله انزال مكروه بالمخدوع واياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله المكر والخديعة في النار والمعنى يؤدى بقاصدها الى النار والثاني بعكس ذلك وهو أن يقصد فاعلهما الي استجرار المخدوع والممكور به الى مصلحة لهما كما يفعل بالصبي اذا امتنع من فعل خير قال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج اليهما في هذا العالم وذلك ان السفيه يميل الى الباطل ولا يقبل الحق ولا يميل اليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبي عن الندى عند الفطام ولهذا قيل ٢ مخرق

٢ قوله صقع قال في المختار الصقع بالضم الناحية اهـ

٢ قوله مخرق المخرقة اللعب والمزاح مولدة وقال ابن جني في سر الصناعة قالوا مرحبك الله ومسهلك وقالوا مخرق الرجل وضعفها ابن كيسان اهـ

فان الدنيا مخاريق وسفسط فان الدنيا سوفسطائية وليس هذا حثا على تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ولكون المكر والخديعة ضربين سيئا وحسنا قال الله تعالى والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور وقال تعالي فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكبارا في الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وقال أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض فخص في الآيات السيئ من المكر تنبيها على جواز المكر الحسن ووصف نفسه تعالى بالمكر الحسن فقال ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وأما الكيد فاراده لاستتار مايراد به لكن أكثر مايستعمل ذلك في الشر ومتى قصد به شر فمذموم ومتى قصد به خير فمحمود وعلى الوجه المحمود قال تعالي كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله وعلى ذلك الاستدراج منه قال تعالي سنستدرجهم من حيث لا يعلمون فاستدراجه تعالى تغطية السبيل على الانسان وتمكينه منه ليطلبه بالآلات التي أعطاه وذلك تكليف له لما تعذر عليه وان كان فيه مشقة واتمكينه من ادراك ذلك قال تعالى ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين فمن جاهد في سبيله وأعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على مايجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة ولطفا واحسانا ومن عطل امعانه من الفكرة والبصر والسمع حتى أضل طريقه كان ذلك خذلانا وعذابا له وعلى نحو ماتقدم وصف تعالي نفسه بالحيلة والمماحلة فقال تعالى وهو شديد المحال وهذه ألفاظ لولا أن البارئ تعالى أطلقها فى مواضع مخصوصة قاصدا بها معاني صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى أن يخطر ذلك ببباله فضلا عن أن يجريه في مقاله وان قصد بها المعنى الصحيح تنزيها له وتعظيما فيجب أن تتلى في القرآن حيثما وردت ولا يتعدى بها وقد ذكر المفسرون ان كثيرا من الاوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود ماكان يتجاسر أن تطلق عليه سبحانه لولا السمع لما فى هذه الاسماء من الكيفية والكمية والانفعال في معنى

الفة والله تعالى منزه عن ذلك كله وهذا فصل كبير يختص به غير هذا الكتاب

﴿ الباب السابع في ماهية المحبة وأنواعها ﴾

المحبة ميل النفوس الي ماتراه أو تظنه خيرا وذلك ضربان أحدهما طبيعي وذلك في الانسان والحيوان وقيل قد يكون بين الجمادات كالالفة بين الحديد وحجر المغناطيس والثاني اختياري وذلك يختص به الانسان فاما مايكون بين الحيوانيين فالفة وهذا الثاني أربعة أضرب الاول للشهوة وأكثر مايكون ذلك بين الاحداث والثاني للمنفعة ومن جهة مايكون بين التجار وأرباب الصناعات المهينة والثالث مايكون مركبا من ضربين كمن يحب آخر للنفع وذلك يحبه للشهوة والرابع للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم وهذه المحبة باقية على مرور الاوقات وهي المستثناة بقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وأما الضروب الاخر فقد تطول مدتها وتقصر بحسب دوام أسبابها والصداقة أخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل الا في الحيوان وأما العشق فمحبة بافراط وذلك اما بحسب اللذة فيكون مذموما أو بحسب الفضيلة فيكون محمودا ولايكون للنفع فان النافع يراد لغيره والفضيلة واللذة يرادان لانفسهما

﴿ الباب الثامن في فضيلة المحبة ﴾

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة ثم العدالة فلو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا عن العدالة فقد قيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لاتوجد المحبة ولذلك عظم الله المنة بايقاع المحبة بين أهل الملة فقال لو أنفقت مافي الارض جميعا ماألفت بين قلوبهم وقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا أي محبة للقلوب تنبيها على ان ذلك أجلب للعقائد وهو أفضل من المهابة فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة لان طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببها وكل قوم اذا تحابوا تواصلوا واذا تواصلوا تعاونوا واذا تعاونوا عملوا واذا عملوا عمروا ٢ واذا

---

٢ قوله واذا عمروا الخ هكذا في الاصل بدون ذكر جواب اهـ

عمروا ولفضل وقوع المحبة شرعا شرع الله اجتماع أهل الملة الواحدة في مساجدهم خمس مرات لاقامة صلاتهم واجتماع أهل ملتهم في بلد كل أسبوع مرة فى الجامع واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين فى الجبانة واجتماع أهل البلدان النائية فى العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الانس وليقع بسبب ذلك الود

﴿ الباب التاسع في فضيلة الصداقة ﴾

الصديق محتاج اليه فى كل حال أما عند سوء الحال فيعاونونه وأما عند حسن الحال فليؤانسوه وليضع معروفه عندهم ومن ظن أنه يمكن الاستغناء عن صديق فمغرور ومن ظن أن وجوده سهل فمتوه ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال هو آخر بالشخص الا أنه أنت بالنفس ولعزة وجوده سئل آخر عنه فقال هو اسم على غير معنى حيوان غير موجود فمن وجد اخوانا ذوى ثقة وجدهم عيونا و آذانا وقلوبا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد واختيار من تركن اليه لتصادقه صعب اذ قد يتشيع لذلك الناقص فتظنه فاضلا فيكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم

﴿ الباب العاشر فى ذكر المحبب فى الناس ﴾

من حببه الله الى الناس فقد أنعم عليه نعمة وسيعة كما أن من بغضه اليهم فقد جعل له نقمة فظيعة والسبب فيمن يكون محببا الى الخلق أن من رعاه الله فصفا جوهره وطاب وحسن عمله حصل له نور ليتزيا فى مشاعر من يراه فيحبه واياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام وألقيت عليك محبة منى وقال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا ألقى محبته فى السماء فلا يشربه عبد الا أحبه واذا بغض عبدا ألقى بغضه في السماء فلا يشربه أحد الا بغضه ولما ألقى الله تعالى على نبينا من المحبة قلما كان يأتيه من بغضه فيهم بقتله الا اذا رآه وقاب فى آفاق وجهه طرفه وألقى الى كلامه سمعه وأعجب به ففارقه على حيل

﴿ الباب الحادى عشر فى الحث على مصاحبة الاخيار ﴾

والحث على مفارقة الاشرار ﴾

حق الانسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الاخيار فهي قد تجعل الشرير خيرا كما ان مصاحبة الاشرار قد تجعل الخير شريرا قال بعض الحكماء من جالس خيرا أصابته بركته فجليس أولياء الله لايشقى وان كان كلبا ككلب أصحاب الكهف حيث قال جل وعز وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ولهذا أوصت الحكماء بمنع الاحداث عن مجالسة السفهاء وقال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه لاتصحب الفاجر فيزين لك فعله ويود انك مثله وقيل جالسوا من تذكركم الله رؤيته ويزيد في خيركم نطقه وقالوا اياك ومجالسة الشرير فان طبعك يسرق من طبعه وأنت لاتدرى بل قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح كمثل الدارى ٢ ان لم يحذك من عطره يعلقك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل القين ان لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل أى يجذبه خليله الى دينه ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ✽ فكل قرين بالمقارن يقتدى

وليس ٣ اعداء الجليس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط بل وبالنظر اليه فالنظر في الصور يؤثر فى النفوس أخلاقا مناسبة الي خلق المنظور اليه فان من دام نظره الي مسرور سر ومن دام نظره الى محزون حزن وذلك ليس في الانسان فقط بل فى الحيوان وسائر النبات فان الجمل الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة الذلول والذلول يصير صعبا بمقارنة الصعاب والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الزابلة ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها ومعلوم أن الماء

---

٢ قوله الدارى فى القاموس الدارى العطار منسوب الى دارين فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند اليها اهـ

٣ قوله اعداء الخ هو بكسر الهمزة مصدر أعدى يقال أعدى فلان فلانا من خلقه أومن علة به أو من جرب وفى الحديث لاعدوى اهـ م

والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة اذاقربت منهما وذلك مما لاينكره ذو تجربه
واذا كانت هذه الاشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس
البشرية التي موضوعها لقبول صور الاشياء خيرها وشرها فقد قيل سمي
الانس انسا لانه يأنس بما يراه ان خيرا وان شرا وللانسان في المعاشرة ثلاثة
أحوال اما أن يكون شكسا أى قاسي الطبع واما أن يكون ملقا أى سلس الطبع
أو مساعدا أى تاركا للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود وحق الانسان
في المعاشرة أن يتقوى من جهة الفكرة بالمطابقة في الكلام ومن جهة الغضب
بالتحالم ومن جهة الشهوة بالجود وأن يتعرى من أضداد ذلك وأن يجامل
المعاشرين والمعادين والمتشمتين بالاخوان ويصابرهم ويكاسرهم طمعا فى
رجوعهم اخوانا واتقاء من شرورهم حتي يكون ظريفا فان الظرف عبارة عن
استجماع آلة العشرة من الطلاقة

(الباب الثانى عشر فى فضيلة تفرد الانسان عن الناس ورذيلته)

قد كثر اختلاف الناس فى مفاضلة التفرد والاختلاط فبعضهم آثر التفرد
عن الناس وبعضهم الاختلاط بهم وأورد كل فريق منهم فى ذلك أخبارا وذلك
بسبب اختلاف نظرهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته
ومصاحبة الآخر بمن مصاحبته حميدة والاصل ان اجتماع بعضهم مع بعض
أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ولهذا لما سمع عمر رضى الله تعالى عنه قائلا
يقول اللهم اغنني عن الناس قال يارجل أراك تسأل الموت قل اللهم اغنني عن
شرار الناس فالناس لايستغني بعضهم عن بعض وقيل التفرد مكروه الا لثلاثة
سلطان لانشاء تدبير المملكة وحكيم لاستنباط الحكمة ومتنسك لمناجاة رب
العزة فان التفرد يبطل الانسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ومن ظن التفرد
خيرا فلاجل أن ليس لتظهر منه سر وذلك يشاركه فيه الموتى وفضيلة الانسان
أن يكون خير الا أن يكون شريرا وان كان زماننا كما قيل

انا فى زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال

فحق الفاضل العاقل أن يجتمع مع العامة في ظواهر أحكام الشرع واقامة وظائف العبادات وانالتهم من الفضيلة بقدر الوسع ويترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق والافعال الجميلة ولمراعاة حكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام عليكم بالسواد الاعظم ولمراعاة الترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق قيل المروءة التامة مباينة العامة بل قيل من استأنس بالله استوحش من الناس وذلك لمخالفته اياهم في الخلق وللنهى عن الاغترار بكثير منهم والركون اليهم سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق قال تعالى ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامه يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم

(الباب الثالث عشر في العداوة)

العدو هو الذي يتحرى اغتيال الآخر ويضاده فيما يؤدى الى ضرره ومنه تعدى فلان أى فعل فعل العدو وهو من قولهم مكان ذوعدو أى متنافي الاجزاء ٢ ناب لمن حله والعداوة ضربان باطن لايدرك بالحاسة وظاهر يدرك بالحاسة فالباطن اثنان أحدهما الشيطان وهو أصل أصل كل عدو ويعادى معادن جوهرته وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال ألم أعهد اليكم الآية وقال لاتتبعوا خطوات الشيطان والثانى الهوى المعبر عنه بالنفس فى قوله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقول النبي صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وكذلك الغضب اذا كان فوق مايجب ولكون هذه القوة فى الانسان اذا أثيرت طريقا للشيطان فى وصوله الينا وكونها كالخليفة لها سماها النبي صلى الله عليه وسلم باسمه فقال الهوى شيطان والغضب شيطان وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام هذا

---

٢ قوله ناب لمن حله هكذا فى الاصل الذى بيدى ولم يعرف له معنى يناسب فى القاموس ولعله بات لمن حله من قولهم بات متاعه بدده واستبانه استخرجه فانظر اه مصححه

من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين وأما الظاهر من الاعداء فالانسان وذلك ضربان ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد الى الاضرار اما مجاهرة واما مساترة وذلك اثنان واحد يعادي كل أحد وهو انسان سيء الطبع خبيث الطينة مبغض لكل من لم يحتج اليه في العاجل بغيض الى كل نفس يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر

يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذى عنى تعالى بشياطين الانس والثانى عدو خاص العداوة وذلك اما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كمعاداة الجاهل العالم واما بسبب نفع دنيوى كالتجاذب فى رياسة ومال وجاه واما بسبب لحمة ومجاورة مورثة للحسد كمعاداة بنى الاعمام بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعى وقال رجل لآخر انى أحبك فقال قد علمت ذلك قال ومن أين علمت قال لانك لست لى بشريك ولا نسيب ولا جار قريب وأكثر المعاداة بين الناس تتولد من شئ من ذلك والضرب الثانى عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدي حاله بالانسان الى أن يقع بسببه فى مثل مايقع من كيد عدوه فسمي عدوا لذلك كالاولاد والارواج ولذلك قال عز وجل ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عليه الصلاة والسلام ليس عدوك الذى ان قتلته آجرك الله فى قتله وان قتلك أدخلك الجنة ولكن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وامرأتك التى تضاجعك وأولادك الذين من صلبك وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الانسان لما كانوا سببا لاهلاكه الاخروى لما يرتكبه من المعاصى من أجلهم فيؤدى ذلك الى هلاك الابد الذى هو شر من اهلاك المعادى المناصب اياه واعلم انه لكون بعض الناس مشاركا للشيطان في المعاداة سمى الله تعالى الاعداء شياطين فى قوله شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقد سمى كل مايتأذى به شيطانا حتى قالوا ماورود الفقير الا شيطان مجنون يؤذى بروح الانسان والفقير هو اسم بئر فجعل ورودها شيطانا

يتأذى به والله سبحانه أعلم

(الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل)

(الباب الاول فى حاجة الناس الي اجتماعهم للتظاهر)

اعلم انه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى مايحتاج اليه الا بمعاونة عدة رجال له فلقمة طعام لوعد دنا تعب محصليها من الزراع والطحان والخباز وصناع آلاتها لصعب حصره احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا ولاجل ذلك قيل الانسان مدنى بالطبع أي لايمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم الى بعض في مصالح الدين والدنيا وعلى ذلك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا وقال مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد اذا تألم بعضه تداعى سائره وقيل الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضا استقل ومتى خذل بعضه بعضا اختل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثانى فى تسخير الله تعالى همم الناس الى الصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه ﴾

لما احتاج الناس بعضهم الى بعض سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة مّا يتعاطاها وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية يؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدرها بملابستها وتطيعه قواه بمزاولتها فاذا جعل اليه صناعة أخرى فربما وجد متبلدا أو متبرما بها وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الاقوات والمعاونات ولولا ذلك لما اختاروا من الاشياء الا أحسنها ومن البلاد الا أطيبها ومن الصناعات الا أنظفها ومن الاعمال الا أرفعها ولتنازعوا على ذلك ولكن الله تعالي بحكمته جعل كلا منهم مجبرا في صورة مخير فالناس اما راض بصنعة لايريد عنها حولا كالحائك الذى يرضى بصنعته ويعيب الحجام والحجام الذى

يرضى بصنعته ويعيب الحائك وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى فقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون واما كاره لها يكابدها مع كراهيته اياها كانه لايجد لها بدلا وعلى هذا دل قوله عليه الصلاة والسلام كل ميسر لما خلق له بل صرح تعالى بقوله نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا وقال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وقال قل كل يعمل على شاكلته ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لن يزال الناس ماتباينوا فاذا تساووا هلكوا فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتئام والاجتماع والاتفاق كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التي لولاها لما حصل لها نظام فسبحان الله ماأحسن ماصنع وأحكم ماأمر وأتقن مادبر ولهذا قيل من حق من قيض له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على مايجب وكما يجب وعليه قوله عليه الصلاة والسلام من رزق من شئ فليلزمه *وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثالث كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس)

حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة الناس اما باختيار واما باضطرار ولهذا قيل رب ساع لقاعد وهو ان الناس لو كفى كل واحد أمره لادى ذلك الي فساد العالم من حيث انه لم يكن أحد يتولى لغيره مهنة يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها فيؤدى ذلك الى فقر جميعهم وقد قيل قيام العالم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى لان الصناعات القائمة بالغنى ثلاث الملك و تجارة والكتابة وسائرها قائم بالفقر فولم يكن الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ومن كان ينقل الميرة والملابس من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ومن تدبر صنع الله تعالى فى ذلك وتأمل ماأشار اليه في هذه الآيات التى ذكرها لم تعرض لها الشبهة التى تعرض لمن يقول اذا كان الله جوادا واسعا فلم خص بعضهم

بالغنى وجعل أكثرهم فقراء ومن حق الغنى الذى لايفنى غناه والجواد الذى لايعرف لجوده منتهى أن لايخص بالعطية بعضا دون بعض وذلك ان الجواد هو الذي يعطى كل أحد بقدر استئهاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل ذلك بالعباد .

﴿ الباب الرابع مناسبة بدن الانسان لصناعته ﴾

ان الله تعالى فرق همم الناس للصناعات المتفاوتة ويسر كلا لما خلق له وجعل آلاتهم الفكرية والبدنية مستعدة لها فجعل لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبا صافية وعقولا بالمعارف لائقة وأمزجة لطيفة وأبدانا لينة مستصلحة ومن قيضه لمراعاة المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء جعل لهم قلوبا قاسية وعقولا كثرة وأمزجة غليظة وأبدانا خشنة وكما أنه محال أن يصلح السمع للرؤية والبصر للسمع كذلك محال أن يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة وقد جعل تعالى كل جنس من الفريقين نوعين رفيعا ووضيعا فالرفيع من تحري الحذق في صناعته وأقبل على عمله وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه وأدى الامانة بقدر جهده ولم يشتغل عن عبادة الله تعالى كما قال تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب الصانع الحاذق ومدح الملائكة بوقوفهم حيثما وقفوا وبأحكامهم لما ولوا فقال تعالى لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون

﴿ الباب الخامس في وجوب التكسب ﴾

التكسب فى الدنيا وان كان معدودا من المباحات لكنه واجب من وجه وذلك اذا لم يمكن الانسان الاستقلال بالعبادة الا بازالة ضروريات حياته فازالتها واجبة لان كل مالايتم الواجب الابه فواجب كوجوبه واذا لم يكن الي ازالة ضروررياته سبيل الا بأخذ تعب من الناس فلابد اذن أن يعوضهم تعبا له والا كان ظالما فمن توسع فى تناول عمل غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد أن يعمل عملا بقدر مايتناوله منهم والا كان ظالما لهم قصدوا افادته أولم

يقصدوها فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم الا قليلا يرضى بقليل عمل ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من رضي من الله بقليل الرزق رضي الله منه بقليل العمل ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعا فانه لم يأتم بالله في قوله وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ولم يدخل في عموم قوله تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب ولم يكن له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يقتدي به بل يجعل له همة عارية بطنه وفرجه فانه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معايشهم ولا يرد اليهم نفعا فلا طائل في مثلهم الا أن يكدروا الماء ويغلوا الاسعار ولهذا الشأن كان عمر رضي الله تعالى عنه اذا نظر الى ذي سيماء سأل أله حرفة فاذا قيل لا سقط من عينه واستحسن النبي صلى الله عليه وسلم من وفد عبد قيس لما سألهم ما المروءة فقالوا العفة والحرفة ومن الدلالة على قبح فعل من هذا صنيعه ان الله تعالى ذم من يأكل مال نفسه اسرافا وبدارا فما حال من أكل مال غيره على ذلك ثم لا ينيلهم عوضا ولا يرد اليهم بدلا فحق كل مضطر الى كسب أن يقتصر على ما يسد فقر وقته ولا يحمل هم غده على يومه قال الشاعر

فمن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر

ومن اقتصر على ذلك فقد صار من المتوكلين الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا

﴿ الباب السادس في مدح السعي وذم الكسل ﴾

من تعطل وتبطل انسلخ من الانسانية بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى وذلك أنه خص الانسان بالقوى الثلاث ليسعي في فضيلتها فان فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميه وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التي تحميه وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلم الذي يهديه فحقه أن يتأمل قوته ويسعى بقدر ما يطيقه فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله

من الذل الى العز ومن الفقر الى الغنى ومن الضعة الى الرفعة ومن الخمول الى النباهة وان من تعود الكسل ومال الى الراحة فقد الراحة فحب الهوينا يكسب التعب وقيل ان أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب وقيل اياك والكسل والضجر فانك ان كسلت لم تؤد حقا وان ضجرت لم تصبر على حق كما قال الشاعر

فان التوانى أنكح العجز بنته * وساق اليها حين أنكحها مهرا
فرشا وطيئا ثم قال لها اتكى * فقصركما لاشك ان تلدا فقرا

وقال يزيد ابن المهلب مايسرني انى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز وان الفزع يبطل الهيئة الانسانية فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل كالعين اذا غمضت واليد اذا عطلت ولذلك وضعت الرياضات فى كل شئ ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا الا بسعي ما منه ولئلا تتعطل فائدة ماجعل بقوة التحرك ولما جعل للانسان الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبا يحصل بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثا وتأمل حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب الجنى ما كفاها مؤنة الطلب وفيه أعظم معجزة فانه لم يخلها من أن أمرها بهزها فقال تعالى وهزى اليك بجذع النخلة وكما ان البدن يتعود الرفاهية بالكسل كذلك النفس بترك التفكر والنظر فتتبلد وتتبله وترجع الى رتبة البهائم فحق الانسان أن لا يذهب عامة أوقاته الا في اصلاح أمر دينه ودنياه ومواصلاته الى آخرته مراعيا لها قال الحجاج ان امرؤ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه أو يتفكر في أمر معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة واذا تأملت قول النبى صلى الله عليه وسلم سافروا تغنموا ونظرت اليه نظرا عاليا علمت انه حثك على التحريك الذى يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى بل مجاورة الله تعالى وذلك يحتاج الى خمسة أشياء [٢] معرفة المعبود المشار اليه بقوله ففروا الى الله ومعرفة الطريق المشار اليه بقوله قل هذه سبيلى أدعوا الى الله

---

[٢] قوله خمسة المعدود هنا أربعة فلينظر اه

على بصـيرة وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليـه بقوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى وجاهدوا في الله حق جهاده فبهذه الاشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله ولا يغرنكم بالله الغرور وهذه من المعالي التي دونها هول العوالى ولا ضير لمن رامها أن يتدرع الصـبر فقد أصاب من قال

فقـل لمرجي معالى الامور * بغير اجتهاد رجوت المحالا

﴿ الباب السابع في تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض ﴾

الصناعات ثلاثة أضرب اما أصول لاقوام للعالم بدونها وهى أربعة أشـياء الحياكة والزراعة والبناية والسياسة واما مرشحة لكل واحد من ذلك وخادمة كالحدادة للزراعة والحلاجة والغزالة للحياكة واما تمرة لكل واحد من ذلك ومزينة له كالطحانة والخبازة للزراعة والقصارة للحياكة ومثل ذلك بالاضافة الى العالم مثـل أجزاء الشخص الى الشخص سواء بسواء فانه على ثلاثة أضرب اما أصول كالقلب والكبد والدماغ واما مرشحة لتلك الاصول وخادمة كالمعدة والعروق والشرايين واما مكملة لها ومزينة كاليـد والحاجب وأشرف أصول الصناعات السياسية وهي أربعة أضرب الاول سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والثانى الولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص والرابع الوعظة والفقهاء وحكمهم على باطن العامة وأشرف هذه السياسات الاربع بعد النبوة افادة العلم وتهذيب الناس به وبيان ذلك أن أشرف الصـناعة يتبين من أوجه اما بحسب النسـبة الى القوة المبرزة لها كالفضـل فى معرفة الحكمة على معرفة اللغات فان الاولى متعلقة بالقوة العقلية وهذه متعلقة بالقوة الحسية والعقل أشرف من الحس واما بحسـب عموم النفع كفضـل الزراعة على الصـناعة واما بحسب الموضوع المعمول فيه كشرف الصياغة على الدباغة وقد عـلم ان الحكمة تدرك بالقوة الفكرية وهى أشرف قوة وانه يتوصل به الى جنة المأوى وذلك

أبلغ نفع وموضوعه الذي تعمل فيه نفوس البشر وهو أفضل موضع يعمل فيه
بل موجود في هذا العالم وافادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة ومن
وجه أجل خلافة الله فان الله مع استخلافه قد فتح على قلبه العلم الذى هو أخص
صفاته تعالى فهو خازن لاجل خزائنه وقد أذن له في الانفاق على كل أحد ممن
لا يفوته الانفاق عليه وكل ما كان انفاقه أكثر على ما يجب وكما يجب كان جاهه
عند مستخلفه أوفر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثامن في أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحي ﴾

أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة عن وحي وذلك أن نقص الانسان
وحاجة بعضهم الى بعض ظاهر والناقص محتاج الى الكامل فلا يخلو اما أن يتصور
أخذ واحد عن واحد بلا غاية وهو محال واما أن ينتهي الى واحد من البشر
عنه الصناعات اما بسماع من الملأ الاعلى أو بالهام أو منام وهذا هو الحد
فمعلوم لذى الالباب أن قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن ادراك خواصها
بافهام البشر وبحريتهم ورؤساء كل صناعة يقرون بذلك فأهل النجوم يقولون
مبادى النجوم من هرمس وهو قبل ادريس عليه الصلاة والسلام وكذلك
أصحاب الطب يدعون مثل ذلك في معرفة الادوية ثم اختصاص كل واحد من
الموجودات بفعل له على حدته أو بحساب العقل عن توهم ماهو أصلح لذلك
الفعل منه يحقق أنه صدر عن حكمة الهية

﴿ الباب التاسع في شأن الناض المتعامل به وحكمة الله تعالى فيه ﴾

اعلم أن الناض أحد أسباب ما به قوام الحياة الدنيوية ومتى توهمنا مرتفعا
تعسر على الناس توجيه معاشهم وقد تقدم أن الناس يحتاج بعضهم الى بعض
ولا يمكنهم التعايش مالم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملا يصير به معينا
للآخر مواسيا له ولما كان كل من واسى غيره من حقه أن يقابل بقدر مواساته
قيض الله سبحانه لهم هذا الناض علامة منه جل ثناؤه ليدفعه الانسان الى من
يوليه نفعا فيدفعه الى من عنده مبتغاه فيأخذ منه بقدر عمله ثم اذا جاء ذلك

الآخر بتلك العلامة أو مثلها الى الاول وطلب منه مبتغى هو عنده دفعه اليه لينتظم أمرهم ولهذا قيل الدرهم حاكم صامت وعدل ساكت وخاتم من الله نافذ وقيل لهذا المعنى سمي فى لغة الفرس دينارا أى الدين أتى به والدين فارسية معربة ولما كان ذلك حاكما عظم الله تعالى وعيد من احتبسه ومنع الناس عن التعامل به فقال والذين يكنزون الذهب والفضة الآية وذلك أنه يصير باحباسه اياهما كمن حبس حاكمين للناس بهما تمشى أمور معايشهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة انما يجرجر بطنه في نار جهنم لانه يؤدى الي منع الناس التصرف في معاملتهم

﴿ الباب العاشر فى مدح المال وذمه ﴾

المال اذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم واذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر اذ القنيات ثلاثة نفسية وبدنية وخارجة والخارجة أدونها وأدون الخارجات الناض لانه خادم غير مخدوم وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه لان النفس يخدمها البدن والبدن يخدمه المأكل والملبس وهما يخدمهما المال فالمال من حقه أن يكون خادما لغيره من القنيات وان لا يكون شئ من القنيات خادما له وان كان كثيرا من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيدا وهم الذين ذمهم النبي صلي الله عليه وسلم بقوله تعس عبد الدينار ولعظم موقع المال عند من لا يتجاوز المحسوسات قال حكاية عن بعض أنبيائه فيما خاطب به أمته استغفروا ربكم انه كان غفارا ولعظم منافعه في الامور الدنيوية قال تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ونبه على حقارة قدره بالاضافة الى أحوال الآخرة فقال لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم وخوف من أعجب باقتنائه فقال أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى ذرنى ومن خلقت وحيدا فحق الانسان أن يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في خان سفر يصلح للانتفاع بها مادام نازلا في ذلك الخان فيتناول منها مقدار

الباغة ويتسلى عنها عنـد الرحلة ويستهجن لنفسـه أن يكذب و يغضب ويحزن ويرتكب القبائح في سببها واعلم ان الناض الذي هو العين والورق حجر جعله الله سـبحانه سببا للتعامل به كما تقـدم آنفا وخادما كما ذكرناه فقبيح بالحر المتوشح لنيـل الفضائل والاقتداء بالباري جـل ثناؤه والوصول الي الغنى الاكبر أن يتهافت على المـال بأكثر ممـا يحتاج اليه ويجعل نفسه أقل رقيق له وأخسه كما قيل * فرق ذوى الاطماع رق مخلد * ويكون منعكفا منه على حجر يعبده كما قال تعالى يعكفون على أصنام لهم وأرى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام لمـا سأل الله تعالى فقال واجنبني وبني أن نعبد الاصنام لم يرد الا أن يحرسه وذريته عن الاعراض الدنيوية الصارفة عن الله فمثله عليه الصلاة والسـلام وأولاده يتنزه أن يشفق من اعتقاد في حجر هو صانعه ويستحق عبادته وقال في موضع آخر اشارة الى مايعم هذا المعنى وغيره ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وقال بعض الحكماء مثل الانسان وشغفه بهذه الاعراض الدنيوية كراكب في سفينة الى أفضل بلد فانتهى الى جزيرة ذات أسود وأساود فأمروا بالخروج والتهيؤ للطهارة وأن يكونوا على حـذر فرأوا حجرا مزبرجا مزينا فشغفوا به وتباعدوا عن المركب ونسوا مقصودهم ومركبهم وبقوا لاهين حتى شارت السفينة فثارت عليهم الاسود والاساود فلم يغن عنهـم حجرهم فصاروا كما قال تعالى عمن هذه حاله ماأغني عنى ماليه هلك عنى سلطانيه

﴿ الباب الحادى عشر فى المـال والادب وفي اقتنائها والوجوه التى منها يحصل ﴾

قد تقدم ان المـال من الخيرات المتوسطة لانه كما قد يكون سببا للشر يكون سببا للخير لكن لمـا كان في أكثر الاحوال يوجب كرامة أصحابه وتعظيم أربابه حتى صدق الشاعر فى قوله

الناس أعداء لكل مدقع * صفر اليدين واخوة للمكثر

وحتى قيل رأيت ذا المـال مهيبا قال صلى الله عليه وسلم نعم المـال الصالح للرجل الصالح واستصوب قول طلحة رضى الله تعالي عنه في دعائه اللهـم ارزقنا مجدا

ومالا فلا يصلح المجد الا بالمال ولا يصلح المال الا بمراعاة المجد وقال بعض الحكماء اطلبوا العلم والمال بحق الرياسة فالناس خاص وعام فالخاص يفضلك بما تحسن والعام بما تملك واكتسابه من الوجه الذى ينبغى صعب وتفريقه سهل كما قال الشاعر * له مصعد صعب ومنحدر سهل * ومن رام اكتسابه من وجه صعب عليه فالمكاسب الجليلة قليلة عند الحر العادل ومن رضى بكسبه من حيث ما اتفق فقد سهل عليه والفاضل ينقبض عن اقتناء المال ويسترسل فى انفاقه ولا يريده لذاته بل لاكتسابه المحمدة به ولا يجمع المال عنده مدخرا كما قال الشاعر

لايألف الدرهم المضروب صرتنا * لكن يمر عليها وهو منصرف
انا اذا اجتمعت يوما دراهمنا * ظلت الى طرق المعروف تنصرف

وغير الفاضل يسترسل في اقتنائه وينقبض فى انفاقه ويطلب لذاته لا لادخار الفضيلة به والمال يحصل من وجهين أحدهما بسبب منسوب الى الجد المحض والبخت الصرف من غير اكتساب من صاحبه كمن ورث مالا أو وجد كنزا أو قبض له من أولاد شيأ والثانى أن يكتسب الانسان كمن يشتغل بتجارة أو صناعة فيدخر منها مالا وهذا الضرب لايستغني فيه عن الجد ولهذا قيل

علىّ السعى فيما فيه نفعي * وليس علىّ ادراك النجاح

فحظ الجد أكثر من حظ الكد بخلاف الاخلاق والاعمال الاخروية التى حظ الكد فيها أكثر وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله من كان يريد العاجلة الآية واشترط فى العاجلة مشيئته للمعطى وارادته للمعطى له ولم يشترط السعي لها مع الايمان ولم يشترط ارادته ومشيئته وان كان ذلك لايتعدى منهما فحق العاقل أن يعنى بما اذا طلبه ناله واذا ناله لم يخف زواله ويقلل المبالاة بما اذا قدر له أتاه طلبه أم لا وقال بعض الحكماء ان البخت بمنزلة امرأة صماء عمياء ورعناء فى حجرها جواهر وهى قاعدة على حجر مدور يتبعها ناس كثير يلتمسون ماعندها وهى لاتسمع قولا ولا ترى وجها وقد اعتزل عنها قوم قليلو العدد

وقعدوا حجرة وفي كل ساعة تولي قبضة مما في حجرها واحدا من القوم كأنها المغنية بقول الشاعر

لا تعدحن حسنا في المجد ان مطرت * كفاه جودا ولا تذممه ان رزما
فليس يبخل اشفاقا على نشب * ولن يجود بفضل المال معتزما
لكنها خطرات من وساوسه * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

وتارة تعرج على من أعطته فتسلبه سلبا وتدوسه بحجرها دوسا وأما الفضائل الاخروية فكما قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فان أعطيته كلك فأنت من اعطائه اياك بعضه على خطر وقال تعالى وأن ليس للانسان الاماسعى

﴿ الباب الثاني عشر في اخفاق العاقل وانجاح الجاهل ﴾

الحكمة تقتضي أن يكون العاقل الحكيم في أكثر الاحوال مقلا وذلك انه لا يأخذ المال الا كما يجب من الوجه الذي يجب في الوقت الذي يجب ثم اذا أخذه وتناوله لم يدخره عن مكرمة والجاهل عليه الجميع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محظور واستباحة محجور واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر ومساعدتهم على ارتكاب الشر طمعا في نفعهم وكثيرا مايرى منهم في جملة الموصوفين بقوله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق شاكين بختهم فبعضهم يغضب على الفلك وبعضهم على القدر وبعضهم يتجاوز الاسباب فيعاتب الله تعالى حتى قال بعضهم في ذلك شعر

لقوله نحن قسمنا بينهم زال المرا
ولو تولي غيره * قسمة أرزاق الورى
جرت خطوب بيننا * لكنه تحت العرا

وذلك لحرصهم على ارتكاب القبائح وجهلهم بما يقيض الله سبحانه وتعالى من المصالح وقول الشاعر

هذا الذي ترك الالباب حائرة * وصير العالم النحرير زنديقا

فان الذى يصير بذلك زنديقا لو يسمى بالجاهل الشرير أولى من أن يسمى بالعالم النحرير فقد قال حكيم سوأة لمن أعطي العلم فجزع لفقد الذهب والفضة أعطى السلامة والدعة فجزع لفقد الالم والتعب

(الباب الثالث عشر في تحقيق كون المال في أيدى الناس)

ان الله تعالي أوجد أعراض الدنيا بلغة فاعتدها الناس عقدة وصير الدنيا مرتحلا وممرا فصيروها موطنا ومقرا الا قليلا أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله وقليل من عبادى الشكور تاجروا بها ربهم كما قال تعالى ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة الآية واعراض الدنيا من وجه عارية في أيدى الناس مستردة كما قال

وما المال والاهلون الا ودائع * ولا بد يوماأن ترد الودائع

ومن وجه منحة منحها الانسان لينتفع مدة بدرها وينتفع بها غيره ومن وجه وديعة فى يده وخص له في استعمالها والانتفاع بها بعد أن لا يسرف فيها لكن الانسان بجهله ونسيانه لما عهد اليه بقوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اغتر بها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة فركن اليها ولم تؤد أمانة الله تعالى ثم لما طولب بردها تصورت له وضجر فلم يبرح عنها الا بنزع روحه أو كسر يده وبعضهم وهم الاقلون حفظوا ماعهد اليهم فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة فأدوا فيها الامانة وعلموا أنها مستردة فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا وردوها شاكرين لما نالوه منها ومشكورين لاداء الامانة فيها وقد ذكر بعض العارفين فى ذلك مثلا فقال انما مثل أرباب الدنيا فيما أعطوه من أعراضها كرجل دعا قوما الى داره وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين فكان اذا دخل أحدهم ناوله اياه لا ليتملكه بل ليشمه ويناوله لمن بعده فمن كان جاهلا ظن انه يملكه فلما استرجع منه ضجر ومن كان عاقلا تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر

﴿ الباب الرابع عشر في تفاوت المتناولين لاعراض الدنيا ﴾

طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب الاول من يتناولها على أى وجه اتفق
راكنا الى المال غير متفكر في المآل واياه قصد تعالى بقوله يحسب أن ماله
أخلده الثاني من يتناولها على وجه يجب عليه تناوله وذلك اذا اقتصر على مالا
يمكن التبلغ بأقل منه من الوجه الذى يجب كما يجب ولوجوب تناول هذا القدر
قيل مباحات الصوفية فريضة وفريضتهم مباحة يعنى انه لايقدم على تناول مباح
حتى يضطر اليه وروى من طلب رزقه على ماسن فهو في جهاد وقال صلى الله
عليه وسلم لابن مسعود ان المؤمن ليؤجر فى كل شئ حتى اللقمة التى يضعها
في في امرأته ولم يعن ان كل أحد يؤجر في ذلك وانما أراد تخصيص المؤمنين
الذين يراعون حكم الله عز وجل في مكاسبهم وانفاقهم ويتحرون به عبادة الله
تعالى والضرب الثالث من يتوسع فى تناولها ولا يراعى فيه لكن يكون فيه وكيلا
لله فيقتصر منه لنفسه على تناول بلغته ويجعل الباقي مصروفا الى مادعى اليه فهذا
أفضل ممن تقدم ذكره فانه يصير بذلك من خلفاء الله تعالى فمن تناول الدنيا
على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل في قوله تعالي وابتغ فيما
آتاك الله الدار الآخرة الآية وبالاعتبار بمثلهم قال تعالى قل من حرم زينة
الله وقال ولقد كتبنا في الزبور الآية فجعلها لهم ثم قال ان في هذا لبلاغا لقوم
عابدين أى من تحرى عبادة الله تعالى في تناول الدنيا فانه يبلغ بذلك المقصود
فى قوله وأن الى ربك المنتهى وقال ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم
والفضل هو الاحسان فنبه بذلك على أن تناول المال اذا تحرى به الوجه الذى
يجب كما يجب فهو فضل واحسان وقال فى مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب
رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله الآية

﴿ الباب الخامس عشر في بيان ماورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا ﴾

من تصور الوجوه الثلاثة التي تقدم ذكرها في تناول الدنيا سقطت شبهته
فيما ورد من الآيات والاخبار المتفاوتة فى الظاهر من ذم الدنيا وأعراضها تارة

ومدحها تارة وذلك ان ماجاء فى ذمها فاعتبارا بمن رضيها حظا لنفسه وجعلها قاضية مراده كما قال تعالي ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وما جاء في مدحها فاعتبارا بتناولها وانفاقها على مايحمد وعلى ذلك قال على رضى الله تعالى عنه الدنيا دار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها والناس فيها رجلان بائع نفس فموبقها ومبتاع نفس فمعتقها وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الارض فقال تعالي واستعمركم فيها وقال صلى الله عليه وسلم من غرس غرسا لم يأكل منه طائر ولا بهيمة الا كان له صدقة وذم مرة عمارتها فقال تعالى أولم يسيروا في الارض الى قوله وعمروها أكثر مما عمروها وقال صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها

﴿ الباب السادس عشر في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ﴾

الناس فى ذلك ثلاثة أصناف صنف منهم المنهمكون فى الدنيا بلاالتفات منهم الي العقبى وهم المسمون عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها من الاسماء وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم الى مصالح الدنيا وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما وهذا الصنف هم عندالحكماء الافضلون لان بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ومنهم عامة الانبياء لان الله عز وجل بعثهم لاقامة مصالح المعاد والمعاش ولان أمورهم مبنية على الاعتدال الذى هو أشرف الاحوال وأجدر أن تكون ثلاثتهم داخلين في قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة فالراعى للدنيا والآخرة على مايحسن وكما يحسن من السابقين وجعل قوم السابقين هم النساك الذين رفضوا الدنيا محتجين فيه بقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وخفى على هذا الجاهل أن أعظم عبادة الله تعالى ما كان عائدا بمصالح عباده وروى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله ولانه كما يقبح أن يشتغل الانسان بأمر دنياه وبدنه فيضيع أحد جزأيه المركب عليه كذلك يقبح أن يضيع الجزء الآخر الذى هو بدنه لانه يصير

مضاد الله تعالى فى ابطال ماأوجده وأتقنه فان قيل فقد قال بعض الحكماء الناس ثلاثة رجل شغله معاده عن معاشه فذلك من الفائزين ورجل شغله معاشه عن معاده فذلك من الهالكين ورجل مشتغل بهما فذلك من المخاطرين قال وقدعلم أن الفائزين أحسن حالا من المخاطرين قيل ان المنازل الرفيعة لاتنفك عن مخاطرة ولم يقصد هذا القائل بذلك الا تفضيل الفائز انما الخوف أن يترشح لخلافة الله تعالى من هو قاصر عنها ويقوى ذلك ماروى أن بعض أولاد الملوك ممن تقوى فى العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد في الدنيا فكتب اليه بعض الملوك قد اعتزلت مانحن فيه فان عرفت ان ماأنت فيه أفضل فعرفنا لنذر مانحن فيه ولا تحسبنى أقبل منك قولا بلا حجة فكتب اليه أنا عبدالملك رحيم بعثنا الى حرب عدو وعرفنا أن المقصد بذلك قهره أوالسلامة منه فلما قربوا من الزحف صاروا ثلاثة أثلاث متحرر طالب السلامة فاعتزل عنه فاكتسب السلامة وان لم يكتسب المحمدة ومتهور أقدم على غير بصيرة فجرحه العدو فهزمه فاكتسب بذلك سخط ربه وشجاع قدم على بصيرة فقاتل وأبلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز وأنا لما وجدتنى ضعيفا رضيت أدنى الهمتين وأدون المنزلتين فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن أكرمهم والسلام على من اتبع الهدى

﴿ الباب السابع عشر فى بيان أحوال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لايجوز له ذلك ﴾

الاعتبار فى تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال الزهد فيها أو الرغبة لاتناول الكثير والقليل بل تناولها من حيث مايجب ووضعها كما يجب قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه لو أن رجلا أخذ جميع مافي الارض وأراد به وجه الله تعالى يسمى زاهدا ولو انه ترك جميع مافى الارض ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسم زاهدا ولا كان لله تعالى في ذلك عابدا فليكن أخذك لمدى تأخذه وتركك الذى تتركه لله عز وجل لالغيره واعلم ان الحكيم اذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق تناول حية قد عرف ضرها ونفعها ومن

سمه فيتحري بتناولها الوجه الذى ينتفع هو به وينفع غيره فهو مباح له تناولها وغير الحكيم اذا تناولها فهو كجاهل استحسن الحية واستلان مسها فظن انها مستصلحة لان يتقلد بها فجعلها سخابا في عنقه فلدغته وقتلته وما أحسن قول الشاعر

هى دنيا كحية تنفث السم وان كانت المجسة لانت

فكما لايجوز للجاهل برقية الحية أن يتناولها كذلك لايجوز للجاهل أن يقتدى بالحكيم في تناول أعراض الدنيا وكما انه محال أن يسلك الاعمى من غير قائد طريقا وعرا يسلكه البصير اذ هو غير آمن أن يقع فى وهدة كذلك محال أن يسلك الجاهل مستبدا برأيه في تناول أعراض الدنيا طريقا يسلكه الحكيم العالم اذ هو غير آمن أن يقع في هاوية وأيضا فالدنيا غانية رعناء كما قال

شيم الغانيات فيها فلا أد ري أفي الغانيات تحسي أملا

فكما ان الغانية لايجوز ان يدخل عليها ويخلو بها من الرجال الامن كان مجبوبا يؤمن عليها فكذلك الدنيا لايجوز ان يتمكن منها الا المقطوع عنها بالعفة والزهد لئلا تغره وذلك كامير المؤمنين رضى الله تعالى عنه حيث قال ياحمراء ويابيضاء احمرى واصفرى وغرى غيري هذا جناى وجناؤه فيه اذ كل جان يده الى فيه ومن تصور ذلك علم أن الله تعالي قد أباح الدنيا لاوليائه علما منه انهم لايتناولونها الا على مايجب وكما يجب واذا تناولوها وضعوها كما يجب حيث مايجب وعلى هذا قال تعالى ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده وقال ان الارض يرثها عبادى الصالحون الى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها

(الباب الثامن عشر مايناله أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية)

لله تعالى عقوبتان في معاقبة من تناول مالا يجوز له تناوله من الدنيا أو تناول من الوجه الذى يجوز لكنه لم يوف حقه احدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة وذلك كعقوبة من غصب مالا مجاهرة أوسرقة وكمن منع حق الله تعالي من الزكاة فان عقوبتهم ظاهرة أمر السلطان باقامتها والثانية عقوبة خفية

عن البصر مدركة ببصائر أولى الالباب كعقوبة من تناول مالا من حيث لايجوز له تناوله أو منعه من حيث لايجوز منعه الا على وجه فيه حد أمر السلطان باقامته فهذا عقوبته ماروى أى امرئ سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث شغل لايبلغ مداه وفقر لايدرك غناه وأمل لايدرك منتهاه وما قال عليه الصلاة والسلام من كانت الدنيا أكبر همه شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يسأل الله به في أى واد من الدنيا هلك وعليه انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وقوله تعالى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ليس يعنى قلة المعيشة وانما يعنى مايقاسى من الهموم والغموم التى تكدر العيش.

﴿ الباب التاسع عشر في ذكر الانفاق المحمود والمذموم ﴾

الانفاق ضربان محمود ومذموم فالمحمود منه مايكسب صاحبه العدالة وهو بذل ماأوجبت الشريعة بذله كالصدقة المفروضة والانفاق على العيال ومنه مايكسب صاحبه أجرا وهو الانفاق على من ألزمت الشريعة الانفاق عليه ومنه مايكسب الحرية وهو بذل ماندبت الشريعة الى بذله فهذا يكسب من الناس شكرا ومن ولى النعمة أجرا فالمذموم ضربان افراط وهو التبذير والاسراف وتفريط وهو التقتير والامساك وكلاهما يراعي فيه الكمية والكيفية فالتبذير من جهة الكمية أن يعطى أكثر مما يحتمله حاله ومن حيث الكيفية فأن يضعه في غير موضعه والاعتبار فيه بالكيفية أكثر منه بالكمية فرب منفق درهما من ألوف هو في انفاقه مسرف وببذله مفسد ظالم كمن أعطى فاجرة درهما أو اشترى خمرا ورب منفق ألوفا لايملك غيرها هو فيه مقتصد وبذله محمود كما روى في شأن الصديق رضى الله تعالى عنه وقد قيل لحكيم متى يكون بذل القليل اسرافا والكثير اقتصادا قال اذا كان بذل القليل فى باطل والكثير فى حق والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون مايحمله حاله ومن جهة الكيفية أن يمنع من حيث مايجب وينفق حيث لايجب والتبذير عند الناس أحمد لانه جود

لكنه أكثر مما يجب والتقتير بخل والجود على كل حال أحمد من البخل لان رجوع المبذر الى السخاء سهل وارتقاء البخيل اليه صعب ولان المبذر قد ينفع غيره وان أضر بنفسه والمقتر لاينفع نفسه ولا غيره وقد يقال ان التبذير في الحقيقة أقبح لما فيه من الاسراف ولان بجانبه حقا مضيعا ولانه يؤدى بصاحبه الي أن يظلم غيره ولهذا قيل المبذر أغدر من الظالم لانه جهل بقدر المال الذى هو سبب استبقاء الناس والجهل رأس شر والمتلاف ظالم من وجهين لاخذه من غير موضعه وصرفه كذلك ولكثرة مذام الاسراف ذمه الله تعالى أكثر من البخل فقال ولا تبذر تبذيرا وقال عز وجل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك الآية أى ملوما من جهة سائلك فلم تجد ماتعطيه ومحسورا عن بلوغ مرادك قال المتنبي

فلاينحلل فى المجد مالك كله * فينحل مجد كان بالمال عقده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وليس الاسراف متعلقا بالمال فقط بل بكل شئ وضع فى غير موضعه اللائق به ألا ترى ان الله تعالى وصف قوم لوط بالاسراف لوضعهم البذر في غير المحرث فقال بل أنتم قوم مسرفون ووصف فرعون بقوله انه كان عاليا من المسرفين وقوله وانه لمن المسرفين

﴿ الباب العشرون فى حقيقة السخاء والجود والبخل ﴾

السخاء هيئة للانسان داعية الى بذل القنيات حصل معه البذل أولم يحصل ويقابله الشح والجود بذل المقتنى ويقابله البخل هذا هو الاصل وان كان كل واحد منهما قد يستعمل في موضع الآخر ويدلك علي هذا الفرق انهم جعلوا الفاعل من السخاء والبخل على بناء الافعال الغريزية فقالوا شحيح وسخى وقالوا جواد وباخل وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم ولكون السخاء غريزة لم يوصف البارى تعالى به وقد عظم الله أمر الشح وخوف منه ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ثلاث مهلكات

شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فخص المطاع لينبه على ان وجود الشح فى النفس ليس مما يستحق به الذم اذ هو ليس من فعله وانما ذم بالانقياد له فقال ومن يوق شح نفسه وقال وأحضرت الانفس الشح وقال عليه الصلاة والسلام لايجتمع شح وايمان في قلب عبد

﴿ الباب الحادى والعشرون في فضيلة الجود وذم البخل ﴾

الجود على ألسنة الورى محمود ولذلك قيل كفى بالجود حمدا ان اسمه مطلقا لايقع الا في حمد وكفى بالبخل ذما ان اسمه مطلقا لايقع الا في ذم وقيل لحكيم أى فعل للبشر أشبه بفعل البارى تعالى فقال الجود وقال عليه الصلاة والسلام الجود شجرة من أشجار الجنة من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى الجنة والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى النار ومن شرفه ان الله تعالى قرن ذكره بالايمان ووصف أهله بالفلاح والفلاح اسم جامع لسعادة الدارين فقال الذين يؤمنون بالغيب الى قوله هم المفلحون وحق للجود ان يقرن بالايمان فلا شئ أخص به وأشد مجانسة له منه فمن صفة المؤمن انشراح الصدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا وهما من صفات الجود والبخيل لان الجواد يوصف بسعة الصدر للانفاق والبخيل يوصف بضيق الصدر للامساك وقال عليه الصلاة والسلام أى داء أدوأ من البخل والبخل ثلاثة أضرب بخله بماله وبخله بمال غيره على غيره وبخله على نفسه بمال غيره وهو أقبح الثلاثة والباخل بما في يده باخل بمال الله على نفسه فقد تقدم ان المال عارية فى يد الانسان مستردة ولا أحد أجهل ممن لاينقذ نفسه من العذاب الاليم الدائم بمال غيره سيما اذا لم يخف من صاحبه تبعة ولا ملامة والكفاية الالهية متكفلة بالتعويض للمنفق فقد قال عليه الصلاة والسلام اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا وقال ان الله عز وجل ينزل المعونة بقدر المؤنة وروى من وسع وسع عليه

﴿ الباب الثانى والعشرون في أنواع الجود والمجود به ﴾

الجود خمسة أضرب جود الله تعالى وهو البذل على كل أحد بقدر استحقاقه وجود الملوك وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم وجود السوقة وهم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال وجود الصعاليك وهو البذل للندامى والشرب وجود عوام الناس وهو الاحسان الى الاقرب والمحمود من ذلك كله الجود الالهي وهو الجود على كل بقدر استحقاقه فالمعطي مايحتاج اليه لمن لايحتاج اليه مسرف مضيع والمعطي لغيره شيأ لرهبة واق نفسه والمعطي لرغبة له مثوبة أو لمحمدة دنيوية تاجر وأما قول بشار

فتى يشتري حسن الثناء بماله * ويعلم ان الدائرات تدور

فليس بغاية في الوصف بالجود التام لمن وصف بتجارة محمودة وأحسن منه قول ابن الرومي

وتاجر البر لايزال له * ربحان في كل متجر تجره

أجر وحمد وانما طلب الـ * ـأجر ولكن كلاهما اعوره

وقد أجاد بشار بقوله

ليس يعطيك للرجاء ولا الـ * ـخوف لكن يلذ طعم العطاء

﴿ الفصل السابع في ذكر الافعال ﴾

﴿ الباب الاول في أنواع الافعال ﴾

الافعال ضربان الهي وانساني فالالهي أربعة أضرب ابداع وتكوين وتربية واحالة وجميع ذلك يسمى خلقا من حيث كان وجود كل واحد بمقدار والخلق في الاصل التقدير المستقيم فالاول الابداع وهو ايجاد الشيء دفعة لاعن موجود ولاترتيب ولاعن نقص الى كمال وليس ذلك الا للباري تعالى وان كانت العرب تستعمل الابداع فيمن يحفر بئرا في مكان لم يحفر فيه قبل والثاني التكوين وهو ايجاد الشيء عن عدم بترتيب ومن نقص الى كمال والمتكلمون قد يستعملون التكوين موضع الابداع ولما هفوا عن حقيقة التكوين استشنعوا قول من قال السماء ليست بمكونة وقدروا انه يقول ليست بمبدعة ولامخلوقة وانما أراد

هذا القائل فيما ذكره أصحابه ودل عليه كلامه ان الله تعالى أبدعها ابداعا كما قال الله تعالى بديع السموات والارض ولم يخلقها خلقة ناقصة فى ابتداء نشأتها ثم كملها شيأ فشيأ كالحيوان والانسان والنبات والثالث تربية الشئ وهى تغذيته وذلك استخلاف ماتحلل من أبدان ماوجد من كون ليبقى المدة المضروبة له وبه وقيل له تعالى رب العالمين والرابع احالة الشئ وهى التغايير اللاحقة للكائنات في كيفياتها من لون وطعم ورائحة والفعل الانسانى ثلاثة أضرب نفسانى فقط وهو الافكار والعلوم وماينسب الى أفعال القلوب وبدنى وهو الحركات التى يفعلها الانسان في بدنه كالمشى والقيام والقعود وصناعي وهو مايفعله الانسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات

﴿ الباب الثانى الفرق بين الفعل والعمل والصنع ﴾

الفعل لفظ عام يقال لما كان باجادة أوغيرها بعلم أوغيره بقصد أوغيره ولما كان من الانسان والحيوان والجمادات وأما العمل فيقال لما كان من الحيوان دون ما كان من الجمادات وبقصد وعلم دون غيره قال بعض الأدباء العمل مقلوب عن العلم وان العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة وهو يبرز عن فعل القلب الذى هو العلم وينقلب عنه وأما الصنع فانه يكون من الانسان دون سائر الحيوان ولايقال الا لما كان باجادة ولهذا يقال للحاذق المجيد والحاذقة المجيدة صنيع وصناع والصنع قديكون بغير فكر لشرف فاعله والفعل قد يكون بلا فكر لنقص فاعله والصنع أخص المعانى الثلاثة والفعل أعمها والعمل أوسطها فكل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كل فعل عملا وفارسية هذه الالفاظ تنبئ عن الفرق بينها فانه قيل للفعل كار والعمل كردار والصنع كنش

﴿ الباب الثالث أنواع الصناعات ﴾

هي ضربان علمى وعملي فالعملى مايستغني فيه عن الاستعانة بالجوارح من اليد أو الرجل كالمعارف الالهية والحساب والعملى مايستعان فيه بالجوارح وهو

ضربان الاول ينقضي بانقضاء حركة الصانع كالرقص والثاني شيء يبقى له أثر معقول لا محسوس كالطب وضرب محسوس كالكتابة

﴿ الباب الرابع الافعال الارادية وغير الارادية ﴾

الفعل الذي يظهر من غير الله تعالى اما تسخيري واما غير تسخيري فالتسخيري يظهر لا بقصد ممن يظهر منه وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان وهو نوعان نوع بتسخير الله تعالى كاحراق النار وتبريد الثلج وضرب بتسخير البشر كطحن الرحى وأما غير التسخيري فضربان ضرب يكون من فاعله له مبدأ الارادة وهو ثلاثة الاول بحسب التميز كمن تناول الخير دون الشر مؤثرا له والثاني بحسب الغضب كمن يبطش بمن يقدر عليه والثالث بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه والذي لا يكون منه مبدأ الارادة ولا منتهاها كمن رمى غرضا فأصاب رجلا وضرب يكون منه مبدأ الارادة لا منتهاها كمن حصل في سفينة تخاف الغرق فكاف أن يلقي متاعه في الماء ليتخلص والافعال من الجمادات تقع بالتسخر فقط ومن الحيوانات تقع بالتسخر وبالنزاع الذي تقتضيه القوة الشهوية ومن بعض الحيوانات تقع بهما وبالغلبة التي تقيضها القوة الغضبية ومن الانسان تكون بكل ذلك وبالفكرة التي تقتضيها القوة العاقلة

﴿ الباب الخامس مايستحق به اللوم ومالا يستحق ﴾

الافعال ضربان ضرب ارادى وغير ارادى والارادى ضربان ضرب عن روية وضرب لا عن روية والذى عن روية ضربان أحدهما الذى عن روية تظن في غاية الشرف وهو مايكون بحسب النفس الناطقة ويسمى الاختيار وهو طلب ماهو خير له ويستحق أبدا به الحمد اذا كان على الحقيقة اختيارا والثاني عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف وذلك اما بحسب القوة الغضبية وهو دفع مايضره واما بحسب القوة الشهوية وكل واحد منهما اذا كان بقدر مايوجبه العقل يستحق به الحمد واذا كان زائدا أو ناقصا يستحق الذم والارادى الذى عن غير روية واختيار ضربان أحدهما ماينفعه في نفسه والثاني بغيره وكل ضربان

نفع وضر فما قصد به نفع نفسه فقد يستحق به الحمد والشكر معا وما قصد به ضر نفسه فقد يستحق به الذم والعتب عليه وغير الارادى ثلاثة أضرب الاول يكون قسريا ومبدؤه من خارج ولا يكون من أربابه معونة بوجه كمن رفعته ريح فسقط على آنية فكسرها والثاني أن يكون الجاثيا كمن أكرهه سلطان على عمل ما وهذا متى كان الملجأ اليه قبيحا جدا والسبب الملجئ اليه خفيا يستحق مرتكبه الذم كمن يضرب على أن يقتل انسانا ومتى كان الملجأ اليه ليس حميدا بل قبيح وكان السبب الملجئ اليه عظيما لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلقه السيف فيهدد بأن يقتل ان لم يتكلم بكلام قبيح وكلاهما يقال له الاكراه والثالث الخطأ وهو ما يكون مبدؤه من صاحبه وذلك نوعان أحدهما ما تولد عن فعل وقع منه وله أن يفعله كمن يرمى هدفا فيصيب انسانا وذلك يستحق به ملامة مالم يقع من صاحبه تقصير في الاحتراز والثانى ما يتولد عن فعل ليس له أن يفعله كمن شرب فسكر فحمله سكره على أن كسر اناء وضرب انسانا فان ذلك يستحق الملامة وان لم يكسر الاناء وضرب الانسان فقد ارتكب محظورا أدى به الى وقوع ذلك منه فالضرب الاول يقال له أخطأ فهو مخطئ والثانى يقال له خطئ فهو خاطئ ولهذا قال أهل اللغة خطئ في العمد وأخطأ في غيره

﴿ الباب السادس في الاسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها ﴾

أكثر الاسباب التى يحتاج الفعل اليها في وجوده عشرة أشياء فانه يحتاج الى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار والى عنصر يعمل فيه كالخشب والى عمل كالنجر والى زمان ومكان يعمل فيهما والى آلة يعمل بها كالمنحر والمنحت والى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب والى غرض بعيد كتحصين البيت به والى مثال يعمل عليه ويقتدى به والى مرشد يرشده وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال أعطانى زيد اذا باشر الاعطاء وأعطاني الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السبب البعيد والقريب فيقول أعطانى الله وزيد قال الشاعر

حبانا به جدنا والاله * وضرب لنا أجذم صارم

فنسب الي الاول وهو الله عزوجل والي السبب المتأخر وهو الضرب والى المتوسط وهو الجد وقال تعالى الله يتوفي الانفس حين موتها وقال تعالى قل يتوفاكم ملك الموت فأسند الاول الي الآمر به والثاني الي المباشر له وقال الشاعر في صفة الدرع وأبسنيه المالكي * وقال كساهم محرق فنسب الفعل الي عامله وفي الثاني الى مستعملها وقال فى صفة نبال

* نبال كستها ريشها ٢ مضرحية * فنسب كسوتها الي الطائر الذى أخذ ريشه فجعل لها وقيل يداك أوكتا وفوك نفخ فنسب الفعل الى الآلة المتصلة ويقال سيف قاطع فنسب الي الآلة المنفصلة وقيل ضرب فيصل وفاصل وطعن خائف فنسب الى الحدث وقيل سر كاتم وعيشة راضية فنسب الى المفعول وقال عزوجل حرما آمنا فنسب الى المكان وقيل يوم صائم وليل ساهر قال

* ومايل المطى بنائم * فنسب الي الزمان فلما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب لاحد الاسباب مرة وينفي عنه مرة بنظرين مختلفين وعلى ذلك قوله

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى * حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معا بنظرين مختلفين ويقال هذا الخشب قطعته أنا لا السكين ويقال قطعه السكين ولم أقطعه وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه فنسب الى كل ذلك وقال وأضله الله لما كان تعالي هو السبب الاول في وجوده ووجود الآلة وان لم يكن تعالى هو الداعي الى الضلال ويقال أضله الشيطان لما كان هو الداعى الي الضلال وأضلته نفسه لما تركت الاحتراز وهذا فصل من تأمله لم يعتمد فى تثبيت المعانى على مثلها من الالفاظ فينظر من اللفظ الي المعنى بل ينظر في مثل هذا من المعنى الي اللفظ واعلم أن من أجل هذا الذى قدمنا قال قوم من المحصلين لاشئ من الافعال فاعله واحد في الحقيقة الا الله عز وجل فان فعله عز وجل يستغنى عن الزمان والمكان والمادة ومثال يحتذيه ومن عداه من الفاعلين لابد له من كل ذلك أو

بعضه وهذا لايصح أن ينسب الابداع الى غيره تعالى لاحقيقة ولامجازاويصح أن ينسب فعل الله تعالي الى كل ماتقدم ذكره

قال الشيخ أبوالقاسم الراغب رحمه الله تعالى هذا آخر ماقصدت تبيينه من هذا المعنى وأختم القول بحمد الله والثناء عليه والتضرع اليه في أن ينفعني واخواني فيما تحريته ويجعلني ممن تذكر فذكر وتبصر فبصر واتعظ فوعظ وتيقظ فأيقظ فأعظم الهجنة أن يأمر من لايأتمر ويزجر من لاينزجر وأن يدعي الحكمة من يرى القذى في عيون اخوانه فينكرها ويرى الجذع المعترض في أجفانه ولا يغيرها فنصح غيره وغش نفسه فهو

كمن كسى الناس من عرى وعورته * للناس بادية ما أن يواريها

وكالمسن يسن الحديد ولا يقطع وكالصخر الصلد يمر به الماء الناقع ولا ينتفع هو به وقال عليه الصلاة والسلام ان الله ينصر هذا الدين بقوم لاخلاق لهم (ونرغب) اليه تعالى أن يجعلنا برحمته ممن ائتم بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال بادر خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك فما أعظم في القيامة الحسرة والندامة ان لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل شيء فسهل يارب المجاز ويسرلي بالجواز فقد حان حصادي ولم يصلح فسادي وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين واجعله لي من الشافعين آمين

بعـد حمـد الله على آلائه * والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه

﴿يقول مصححه الراجي عفو ربه الكريم * ابن الشيخ حسن الفيومى ابراهيم﴾

قد تم بعون الله طبع كتاب الذريعة الي مكارم الشريعة للشيخ العلامة اللوذعي الفهامة ذى المجد والفيض الربانى أبي القاسم الراغب الاصفهانى الذى لم يسبق بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله فكم أودع فيه من غرر النفائس وأبرز من حسان مخدرات العرائس وأورد من حكم شريفة ونكات بديعة منيفه و آيات قرآنية وأحاديث نبويه فكان حقيقا بطبعه وتيسير سبيل نفعه بالمطبعة العامرة الشرفيـه الثابت محـل ادارتها بشارع خرنفش مصر المحميـه
ادارة خير خلف لاجل سلف (حضرة حسين أفندي شرف)
وقد وفق التمام أوائل ثانى الربيعين من سنة ١٣٢٤
من هجرة سيد الثقلين عليه الصلاة والسلام
و آله ما تعاقبت الليالى والايام

فهرست كتاب الذريعه

صحيفة

٩ الفصل الاول في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب
٩ الباب الاول في مثل أهل الدنيا وما رشحوا له
١١ الباب الثاني في ماهية الانسان وكيفية تركيبه
١٢ الباب الثالث في تعديد قوى الانسان وصفاته
١٤ الباب الرابع في تعاون القوى الروحانية وكيفيات ادراكها
١٥ الباب الخامس في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان
١٦ الباب السادس في بيان مايفضل به الانسان
١٨ الباب السابع في كون الانسان بين البهيمة والملك
١٨ الباب الثامن فيما لاجله أوجد الانسان
١٩ الباب التاسع في السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى
٢٠ الباب العاشر في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض
٢١ الباب الحادي عشر في كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته
٢٢ الباب الثاني عشر فيما يفزع اليه من طهارة النفس
٢٣ الباب الثالث عشر في بيان ملازمة الهوى للعقل
٢٥ الباب الرابع عشر في الفرق بين مايسومه العقل وبين مايسومه الهوى
٢٧ الباب الخامس عشر في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى
٢٨ الباب السادس عشر في حصول الخلق المحمود بطهارة النفس
٢٩ الباب السابع عشر في الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة
٣٠ الباب الثامن عشر في امكان تغيير الخلق
٣١ الباب التاسع عشر في صعوبة اصلاح القوي الشهوية وما في هذه من المضرة والمنفعة

صحيفة

٣٢ الباب العشرون فى ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما
٣٣ الباب الحادى والعشرون فى الفرق بين مايحمد ويذم من التخلق
٣٤ الباب الثانى والعشرون في سبب اختلاف الناس فى أخلاقهم
٣٥ الباب الثالث والعشرون في وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة
٣٦ الباب الرابع والعشرون في أنواع نعم الله الموهوبة والمكسوبة
٣٩ الباب الخامس والعشرون في حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض
٤٠ الباب السادس والعشرون فى الفضائل المطيفة بالانسان
٤٢ الباب السابع والعشرون فيالفضائل الجسمية
٤٤ الباب الثامن والعشرون فيما يتولد من الفضائل النفسية
٤٦ الباب التاسع والعشرون فى الفضائل التوفيقية
٤٨ الباب الثلاثون في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا
٤٩ الباب الحادي والثلاثون فى البواعث على فعل الخير وتحرى الفضائل
٥٠ الباب الثانى والثلاثون في الموانع من تحرى الفضائل
٥١ الباب الثالث والثلاثون فى الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى أقصى الرذائل
٥٣ الباب الرابع والثلاثون فى بيان عبادة الله تعالى فى تهذيب الذين ترددوا فى الرذائل حتى فسدت أخلاقهم
٥٣ الباب الخامس والثلاثون في أصناف الناس
٥٥ الفصل الثاني في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها وفيه أبواب
٥٥ الباب الاول فى فضيلةالعقل
٥٦ الباب الثاني في أنواع العقل
٥٨ الباب الثالث فى المكتسب من العقل الدنيوي والاخروى

صحيفة

٥٩ الباب الرابع في منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها
٦٠ الباب الخامس في جلالة العقل وشرف العلم
٦١ الباب السادس في الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة
٦٣ الباب السابع فى توابع العقل
٧٠ الباب الثامن في ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية مايبلغه الانسان
٧٣ الباب التاسع فى وجوب بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم
٧٣ الباب العاشر فيما يعرف به صحة النبوة
٧٤ الباب الحادى عشر في كون العقل والرسل هاديين الخلق الى الحق
٧٥ الباب الثاني عشر في تعذر ادراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية
٧٥ الباب الثالث عشر فى الايمان والاسلام والتقى والبر
٧٧ الباب الرابع عشر فى الايمان
٧٨ الباب الخامس عشر فى أنواع الجهل
٨٠ الباب السادس عشر في قول النبي صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون بابا
٨٢ الباب السابع عشر فى كون العلم مركوزا في نفوس الناس
٨٣ الباب الثامن عشر في حصر أنواع المعلومات
٨٤ الباب التاسع عشر فيما يعرف به فضيلة العلوم
٨٥ الباب العشرون فى استحسان معرفة أنواع العلوم
٨٦ الباب الحادى والعشرون فى معادات بعض الناس لبعض العلوم

صحيفة

٨٧ الباب الثاني والعشرون في الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه
٨٨ الباب الثالث والعشرون في أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته
٨٩ الباب الرابع والعشرون فيما يجب على المتعلم أن يتحراه
٩١ الباب الخامس والعشرون فيما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه
٩٢ الباب السادس والعشرون في وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم
٩٥ الباب السابع والعشرون في وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة اهمال ذلك
٩٥ الباب الثامن والعشرون في ذكر من يصلح لوعظ العامة
٩٦ الباب التاسع والعشرون فى ذكر الحال التي يجب أن يكون عليها الواعظ
٩٧ الباب الثلاثون فى صعوبة المعيار الذى تعرف به حقائق العلوم
٩٨ الباب الحادى والثلاثون في كراهية الجدال للعوام وذمه
٩٩ الباب الثانى والثلاثون فيما يجب أن يعامل به الجدال المباحث
١٠٠ الباب الثالث والثلاثون فى الوجوه التى من أجلها يقع الشبه والخلاف
١٠١ الباب الرابع والثلاثون في بيان اختلاف جميع الناس فى الاديان والمذاهب
١٠٢ الباب الخامس والثلاثون فى النطق والصمت
١٠٣ الباب السادس والثلاثون فى الصدق ومدحه والكذب وذمه
١٠٥ الباب السابع والثلاثون فيما يحسن ويقبح من الصدق والكذب
١٠٦ الباب الثامن والثلاثون في أنواع الكذب والسبب الداعى اليه
١٠٧ الباب التاسع والثلاثون فى الذكر الحسن من المدح والثناء
١٠٨ الباب الاربعون فى الشكر
١١٠ الباب الحادى والاربعون في الغيبة والنميمة

صحيفة

١١٠ الباب الثانى والاربعون في الكلام القبيح البذاء
١١١ الباب الثالث والاربعون فى المزاح والضحك
١١١ الباب الرابع والاربعون في الحلف
١١٢ الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية وفيه أبواب
١١٢ الباب الاول فى الحياء
١١٤ الباب الثانى في كبر الهمة
١١٥ الباب الثالث في الوفاء والغدر
١١٥ الباب الرابع في المشاورة
١١٦ الباب الخامس في النصح
١١٧ الباب السادس فى كتمان السر
١١٨ الباب السابع فى التواضع والكبر
١٢٠ الباب الثامن في الفخر
١٢١ الباب التاسع في العجب
١٢٣ الباب العاشر في أنواع اللذات وتفصيلها
١٢٤ الباب الحادى عشر فيما يحسن تناوله من المطاعم وفيما يقبح منه
١٢٦ الباب الثانى عشر فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه
١٢٧ الباب الثالث عشر فى العفة
١٢٩ الباب الرابع عشر في القناعة والزهد
١٣٠ الباب الخامس عشر فى الورع
١٣١ الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية وفيه أبواب
١٣١ الباب الاول فيما يقبح من القوى الغضبية
١٣٢ الباب الثانى فى أنواع الصبر ومدحه
١٣٢ الباب الثالث في الشجاعة

صحيفة

١٣٤ الباب الرابع في أسماء أنواع الفزع والجزع والفرق بينها وما يحمد منها ويذم
١٣٥ الباب الخامس فى مداواة الغم وازالة الخوف
١٣٧ الباب السادس فى أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به
١٣٩ الباب السابع فى السرور والفرح
١٤٠ الباب الثامن في العذر والتوبة
١٤١ الباب التاسع في الحلم والعفو
١٤٢ الباب العاشر فى ثوران الغضب وفضل كظمه
١٤٣ الباب الحادى عشر في الغيرة والجوار
١٤٤ الباب الثانى عشر فى الغبطة والمنافسة والحسد
١٤٥ الفصل الخامس فى العدالة والظلم والمحبة والبغض وفيه أبواب
١٤٥ الباب الاول في ذكر العدالة وفضيلتها
١٤٦ الباب الثاني فى أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه
١٤٨ الباب الثالث فيما يحسن ترك العدالة فيه
١٤٩ الباب الرابع في ذكر الظلم
١٥٠ الباب الخامس فى الاسباب التى يحصل منها الاضرار
١٥٠ الباب السادس فى ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة
١٥٢ الباب السابع في ماهية المحبة وأنواعها
١٥٢ الباب الثامن فى فضيلة المحبة
١٥٣ الباب التاسع في فضيلة الصداقة
١٥٣ الباب العاشر فى ذكر المحب في الناس
١٥٣ الباب الحادى عشر في الحث على مصاحبة الاخيار والحث على مفارقة الاشرار

صحيفة

١٥٥ الباب الثاني عشر في فضيلة تفرد الانسان ورذيلته
١٥٦ الباب الثالث عشر في المداوة
١٥٨ الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل وفيه أبواب
١٥٨ الباب الاول في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر
١٥٨ الباب الثاني في تسخير الله تعالى همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه
١٥٩ الباب الثالث في كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس
١٦٠ الباب الرابع في مناسبة بدن الانسان لصناعته
١٦٠ الباب الخامس في وجوب التكسب
١٦١ الباب السادس في مدح السعي وذم الكسل
١٦٣ الباب السابع في تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض
١٦٤ الباب الثامن في أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحي
١٦٤ الباب التاسع في شأن الناض المتعامل به وحكمة الله تعالى فيه
١٦٥ الباب العاشر في مدح المال وذمه
١٦٦ الباب الحادي عشر في المال والادب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل
١٦٨ الباب الثاني عشر في اخفاق العاقل وانجاح الجاهل
١٦٩ الباب الثالث عشر في تحقيق كون المال في أيدي الناس
١٦٩ الباب الرابع عشر في تفاوت أحوال المتناولين لاعراض الدنيا
١٧٠ الباب الخامس عشر في بيان ماورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا
١٧١ الباب السادس عشر في مراعات أمور الدنيا والآخرة
١٧٢ الباب السابع عشر في بيان أحوال من يجوز له الاستكثار من أعراض

صحيفة

الدنيا ومن لايجوز له ذلك
١٧٣ الباب الثامن عشر فيما يذل أرباب الدنيا من المقوتات الدنيوية
١٧٤ الباب التاسع عشر فى ذكر الانفاق المحمود والمذموم
١٧٥ الباب العشرون فى حقيقة السخاء والجود والبخل
١٧٦ الباب الحادى والعشرون في فضيلة الجود وذم البخل
١٧٦ الباب الثانى والعشرون فى أنواع الجود والمجود به
١٧٧ الفصل السابع فى ذكر الافعال وفيه أبواب
١٧٧ الباب الاول في أنواع الافعال
١٧٨ الباب الثاني فى الفرق بين الفعل والعمل والصنع
١٧٨ الباب الثالث في أنواع الصناعات
١٧٩ الباب الرابع في الافعال الارادية وغير الارادية
١٧٩ الباب الخامس فيما يستحق به اللوم ومالا يستحق
١٨٠ الباب السادس فى الاسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها